
الحصاد

* الكتاب: الحصاد (رواية)

* الكاتب: سيد جعيتم

* تدقيق ومراجعة لغوية: عمار العربي

* تصميم الغلاف: د. شيماء أبو طالب

* إخراج داخلي: سليل الفراعنـة

* رقم الإيداع: 29493/ 2021

* الترقيم الدولي: 978-977-94-0587-2

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: **daralmuntadaa@gmail.com**

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع









(رواية)

الحصاد

بقلم

سيد جعيثم

دار المنتدى
للنشر و التوزيع

إهداء

إلىٰ من منحوني الحب كي أحيا، إلىٰ روح والدي وروح والدتي، إلىٰ رفيقة روحي من منحتني الحب ووقفت وما زالت بجواري ولا يمكن أن أوافيها حقها بكلمات أو أفعال، إلىٰ أبنائي وأحفادي فرحة عمري وسندي، إلىٰ كل من يقرأ روايتي، إليكم جميعا أهدي هذه الرواية.



الفصل الأول

قضىٰ «طلبة» ليلته في قسم شرطة المركز، يحتمي بجدران القسم من عائلته، فقد عزموا علىٰ قتله قبل أن يقدم القودة (كفنه) لعائلة «الضبع» ويصبغ كل عائلة «عتمان» بالعار، ظل مستيقظًا لم يغمض له جفن، تتخبط الأفكار وتتضارب حدَّ العراك في رأسه، كيف سيرفع رأسه بين أهل القرية، تسيطر عليه المشاعر المؤلمة، الهواء استعصىٰ علىٰ دخول صدره، تملك التوتر والعجز منه، قضىٰ الليل كله جالسًا علىٰ دكة خشبية مسندًا ظهره إلىٰ الجدار البارد، انتابته نوبة من الصداع الشديد جعلت رؤيته مشوشة.

أحد خفراء القسم من قرية «طلبة» اقترب، يعلم أن «طلبة» لم يتناول أي طعام منذ أمس، جاء بطبق به بعض الجبن القريش ورغيفين من الخبز:

- بسم الله يا «طلبة»، مد يدك ناكل عيش وملح مع بعض.
- مافيش نفس يا واد عمي.
- أنت علىٰ لحم بطنك من امبارح.

- إذا كان معاك أسبرين يبقي كتر خيرك، حاسس إن دماغي هتفرقع.

أحضر الخفير أسبرين لـ «طلبة» وترك بجواره الطعام ورجاه ألا يأخذه علىٰ معدة فارغة.

رأس «طلبة» يموج بالأفكار، أقتنع بكلام الشيخ «مصلح» كبير البلد بحرمة قتل النفس إلا بالحق، وأن الثأر (التار) عادة ذميمة وهي سلسال لا يتوقف من القتل وإزهاق الأرواح البريئة، وأن شجاعته تكون في إيقاف نزيف الدم بين عائلته وعائلة «الضبع» بتقديم كفنه.

عاد وسواسه يستلم رأسه «مرمغت رأس عيلتك في الطين»، استند إلىٰ الجدار وقام واقفًا، اسودت الدنيا ودارت به الحجرة حتىٰ كاد أن يسقط، تحامل علىٰ نفسه، وتوضأ للصلاة، وقف بين يدي ربه يصلي، غلبه البكاء ظل يصلي حتىٰ أدركه التعب فجلس يدعو ربه.

كان الشيخ «مصلح» قبل أن يقنع «طلبة» بتقديم القودة قد بذل جهدًا مع الحاج «مغاوري» كبير عائلة «الضبع»:

- يا حاج «مغاوري»، أنت حاجج بيت الله وعارف سماحة الدين وإن ربنا أمرنا بالعفو عند المقدرة، وقريتنا طول عمرها آمنة ودي أول مرة تحصل فيها جريمة قتل، والحكاية كانت هزار بين الشباب.

- يا شيخ «مصلح» القصاص من القاتل شرعه الإسلام وربنا – سبحانه وتعالىٰ– في كتابه الكريم قال في سورة الإسراء: «وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ «سلطانا»».
- كمل الآية يا حاج «مغاوري»، ربنا –سبحانه وتعالىٰ– قال: «فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا»، القاتل مقبوض عليه وأنتم طالبين تاركم لدم القتيل من أحد أبناء عمومة القاتل ولا ذنب له ولا جريرة والنفس معصومة بشرع الله، ودي عادة جاهلية مذمومة جاء الإسلام ليقضي عليها، لو طاوعنا حماس الشباب البلد كلها ها تتحرق بنار التار.
- يا شيخ «مصلح» أنت سيد العارفين بعاداتنا وتقاليدنا.
- يا حاج «مغاوري» الأمر كدا فيه ظلم لمن وقع عليه الاختيار ليُقتل بدون ذنب وظلم لمن سيقوم بالأخذ بالتار، فحتما سيقبض عليه وقد يعدم هو الآخر، غير إن فيه أطفال هتتيتم وزوجات هتترمل والأمر يصبح فوضىٰ ومفسدة وتعدي علىٰ ولي الأمر في صلاحياته، وديننا الحنيف يا حاج حط علاج لهذا الداء وقال –سبحانه وتعالىٰ– في سورة النساء: «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلىٰ أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم

بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلىٰ أهله وتحرير رقبة مؤمنة».

- لازم أرجع لكبار العائلة وبمشيئة الله نحدد الدية ونقبل كفن «طلبة».

❋❋❋❋

في الصباح حضر إلىٰ قسم الشرطة الشيخ «مصلح السماعني» كبير قرية «السماعنة» وحامل كتاب الله وشهادة عالمية من الأزهر الشريف ليكون في رفقة «طلبة» في أثناء خروجه من القسم فلا يجرؤ أحد علىٰ مهاجمته من أسرته أو أسرة «الضبع» صاحبة الثأر، يشعر الشيخ بالمسئولية تجاه «طلبة»، فهو من أقنعه بتقديم القودة حتىٰ يعود الوئام بين عائلات بلدتهم الصغيرة التي كانت تتميز عن باقي قرىٰ الصعيد بعدم وجود حالات للثأر بين أهلها، فكل العائلات تربطهم صلات قرابة، ولم يسبق حدوث أي حوادث قتل، لذا استغرب مأمور القسم عندما أخبروه بجريمة قتل في قرية «السماعنة».

فور خروج «طلبة» من القسم لفحته نسمة هواء باردة، نظر إلىٰ السماء تظللها الغيوم السوداء وكأن الشمس تأبىٰ الظهور خجلًا مما قرر القدوم عليه، ظل يردد فاتحة الكتاب وقصار الصور، والشيخ «مصلح» يبتسم في وجهه ليطمئنه.

في ظـل انتشـار كثيـف لرجـال الشـرطة تـم نقـل «طلبـة» بعربـة «بوكس» صغيرة خاصة بالقسم يجلس في كبينتها بجوار السائق ضابط من القسم وفي الخلف يجلس «طلبة» ومعه الحاج «مصلح» ورجلان من جند الشرطة تتبعهم عربة بها بعض جنود الشرطة لتوفير الحماية لـ «طلبة»، وصلت العربة إلىٰ قرية «السماعنة».

قريـة «السـماعنة»، قريـة صـغيرة تقـع في حضـن الجبـل مـن جهـة الغرب ومن الشرق يحتضنها نهر النيـل، أهلهـا نـاس طيبـون تسـودهم العلاقات الطيبة، كـل مشـاكلهم يـتم حلهـا بواسـطة الحـاج «مصـلح»، وإذا تعذر حل المشكلة يلجـؤون إلـىٰ عقـد مجلس عـرفي مـن مشـايخ البلـدة، بيـوت القريـة معظمهـا مبنيـة بـالطوب اللـبن مـن دور واحـد، الساقية الوحيدة في أرض الحاج «مصلح»، ويعتمد أهالي القرية في ريِّ أرضهم بالطنبور من ماء ترعة متفرعة من النهر تشق أراضيهم.

يبدو «طلبة» مجهدًا مكتئبًا، نظر بعينيه إلىٰ بيوت القرية، يعلم الله كـم يحـب هـذه الـدُور التـي ولـد فيهـا وشـهدت طفولتـه وصـباه وهـو يجوب أزقتهـا الضـيقة، لا يوجـد بيـت بالقريـة لـم يدخلـه «طلبـة» فهـو يتمتع بحب الجميع لطيبتـه وأمانتـه، تـيقن أنـه سـيحرم مـن الإحسـاس بـدفئها مـرة أخـرىٰ، تسـللت إلـىٰ أنفـه رائحـة حطـب القطـن المشـتعل كوقود في فرن أقرب منزل محملة برائحة الخبز الطازج، رفع رأسه إلىٰ أسـطح البيـوت كلهـا متشـابهة تطـل مـن أسـطحها أفـرع أعـواد القطـن

الجاف وأعواد الذرة، وتظهر للعيان الصوامع المصنوعة من الطين لتخزين الغلال، وتصل إلىٰ أذنه أصوات الطيور الداجنة.

كلما مر ببيت تغلق نوافذه وأبوابه وكأن الجميع يقولون له إنه لم يعد مرغوب فيه، فالجميع يعتبرون ما سيقدم عليه عارًا جرَّه علىٰ عائلته بعدما كان يُضرب به المثل في الشجاعة، ولولا وجود الشيخ «مصلح» معه لرجموه بالحجارة وروث البهائم.

كان «طلبة» شبه مغيبٍ استفاق علىٰ صراخ ونواح نسوة عائلته، فالركب الآن يمر أمام مساكنهم، هب «طلبة» واقفًا فاصطدمت رأسه بسقف العربة، كاد أن يتراجع لولا وجود الشيخ «مصلح» الذي قال له:

- خلاص يا «طلبة» كمل جميلك ما يهزكش اللي أنت سامعه، بعد كدا هيعرفوا قيمة اللي عملته، لو خطر في بالك أنك تتراجع، عيلتك برضه مش هتسامحك، وهيفضل تار عيلة «الضبع» عليك وعلىٰ خلفتك.

ثم قال له ليطمئنه:

- مراتك وابنك «أسعد» في داري من امبارح.

وسط حراسة رجال الشرطة والرجال الأشداء من عائلة الشيخ «مصلح» أكبر عائلات البلدة وصل الركب إلىٰ الصوان الكبير السابق إعداده لتتم مراسم تقديم الكفن فيه.

الصـوان مـزدحم بأكـابر عـائلات البلـدة والقـرىٰ المجـاورة، وفي صدر الصوان نائب المحافظ وكبار ضباط مديرية الأمن بمحافظة قنـا، وإمام مسجد القرية والقس رئـيس ديـر «الأنبـا «سـمعان» القريـب مـن البلدة.

أُدخِل «طلبة» دارًا قريبة من الصوان المعد لتقديم القودة بداخله وظل معه بعض الشباب من عائلة الشيخ «مصلح» لحمايته.

وقف الشيخ «مصلح» خطيبًا:

«بســم الله الــرحمن الــرحيم والصــلاة والســلام علــىٰ أشــرف المرسلين وسيد الخلق أجمعين، سيدنا «محمد» -ﷺ-، تحيـة خاصـة للسيد نائب المحافظ

والسادة ضباط وأفراد الشرطة، وللشيخ «محمدي» إمام مسـجد القرية والأنبا «لوقا» رئيس ديـر الأنبـا «سـمعان» ولكـل أكـابر عـائلات القرية والقرىٰ المجاورة، كلنـا هنـا أهـل لا يوجـد بيننـا أغـراب، قريتنـا الصغيرة تشتهر بالأمان وتتمتع بالهدوء والمحبة، فكـل عـائلات البلـد تربطها صلات قرابة ومصاهرة، مزاح بين صديقين انتهىٰ بجريمـة قتـل غير مقصودة، سقط شاب من عائلة «الضبع» قتيل علىٰ يد صـديقه مـن عائلة «عتمـان»، القاتـل الآن بـين يـد العدالـة، رفضـت عائلـة «الضـبع» تلقـي العـزاء في فقيـدهم إلا بعـد الأخـذ بثـأره، مـن يومهـا والعائلتـان تترصدان ببعضهما وفقدت قريتنا الأمان، الثأر وقـود للقتـل وسلسـال

دم لا ينتهي، وقد وقع اختيار عائلة «الضبع» علىٰ «طلبة» من عائلة «عتمان» لأخذ الثأر منه، مع إنه لا ناقة له ولا جمل في حادث القتل، «طلبة» الذي عرفناه جميعا يؤذن في المسجد ويقيم الشعائر في حالة عدم وجود شيخ المسجد، «طلبة» الأمين الذي استأمنه كل من في البلد لدخول بيته، «طلبة» ليس زينة شباب عائلة «عتمان» فقط إنما هو زينة شباب البلدة كلها».

سكت الشيخ «مصلح» وتفرس في وجوه الحاضرين يرىٰ وقع كلماته عليهم، ثم ذكرهم:

«فاكرين يوم ما سقط ابن «بيومي الضبع» في ساقية البلد، فاكرين مين نط في الساقية وأنقذ حياة الولد؟ لو كنتم نسيتم بفكركم إنه «طلبة» المطلوب موته الآن».

وجه الشيخ «مصلح» حديثه لكبير عائلة «الضبع»:

«يا حاج «مغاوري» أشكرك وأشكر كل عائلة «الضبع» لقبولكم دعوتي، العفو من شيم الكرام وشرف وهيبة وحرمة، والدية التي حكم بيها الأجاويد وقاضي الدية موجودة مع ابني «محمد»».

أشار إلىٰ ابنه فقام وتوجه إلىٰ الحاج «مغاوري» وسلمه الدية فقبلها.

وقف عمدة البلد متحدثًا وقال:

«إن قبول عائلة «الضبع» كفن «طلبة» أمر محمود لهم وتنازلهم عن حق الدم يلزمهم باحترام ما تم الاتفاق عليه وإنهاء الخصومة الثأرية مع عائلة «عتمان».

كل الأفكار السوداء تموج في رأس «طلبة»، جفت دموعه من كثرة البكاء، يعلم أنه لن يستطيع العودة إلىٰ بيته ولن تقبله عائلته، بل قد يقدمون علىٰ قتله فقد وصمهم بالعار، ولولا الشيخ «مصلح» ما أقدم علىٰ تقديم كفنه.

أصرت عائلة «الضبع» علىٰ أن تتبع مراسم القودة القديمة ويوضع «طلبة» في نعش يلف البلدة، رفض «طلبة» وقرر الانسحاب، تدخل الشيخ «مصلح» والعمدة والأجاويد فوافق كبير عائلة «الضبع» علىٰ التخلي عن هذا الشرط علىٰ أن يُلف «طلبة» في كفن ويحمل كفن آخر بين يديه، أقنعوا «طلبة» بأن هذه الإجراءات شكلية، أرتدىٰ «طلبة» قميصًا أبيض وتم لفّه بكفن مع ترك رأسه عارية دون عمامة ويديه وقدميه حرتين، وحمل كفنه بين يديه، وتقدم إلىٰ الصوان.

تقدم قاضي الدم والمحكمين العرفيين من الأجاويد ليقفوا بجوار «طلبة» وهو يقدم كفنه، وبوقوفهم بجوار «طلبة» يعني أن «طلبة» في حمايتهم وأن بؤرة الدم قد ردمت، وبدأ «طلبة» يتكلم بما حفظه:

«أنا «طلبة» من عيلة «عتمان»، أنا اللي دمه مطلوب للأخذ بالتار، جيتكم شايل كفني وزي الميت ملفوف في كفن، أنتم كرام، اعفوا عني لوجه الله -تعالىٰ- ورسوله -عليه الصلاة والسلام- لننهي خصومة الدم بين عائلتينا».

تقدم قاضي الدم يحمل مصحفًا في يده وقال لكبير عائلة «الضبع»:

«جاءكم «طلبة» صاحب ثأركم بكفنه فإذا قبلتم كفنه فهذا يعني العفو عنه وإنهاء الخصومة، وسبق قبولكم الدية المحددة من قبل الأجاويد».

وضع الشيخ «مغاوري» كبير عائلة «الضبع» يده علىٰ المصحف وقال:

«عفونا عنك لوجه الله ورسوله، ومن الآن أصبحت أخًا وابنًا لنا، وسنقيم الليلة سرادق لتلقي العزاء في قتيلنا وسندفن الكفن الذي تلقيناه منك في الجبانة مع قتيلنا».

اخترقت الجموع سيدة عجوز، حاول رجال الشرطة منعها، عرفها الشيخ «مصلح» فهي عمة لـ «طلبة»، ظن أنها جاءت لتوديع «طلبة»، طلب منهم أن يتركوها، اقتربت من «طلبة»، لطمته علىٰ وجهه وصرخت في وجهه:

«لطختنا كلنا بالعار، احنا متبريين منك ليوم الدين».

أطرق «طلبة» برأسه إلىٰ الأرض، حاول التكلم، حُبست الكلمات داخل حلقه، اتنبه إلىٰ بلل بوجهه جراء بصق عمته في وجهه.

لم يتمالك «طلبة» نفسه وسقط أرضًا مغشيًّا عليه.

اصطحبت الشرطة «طلبة» بسيارة القسم خارج البلدة وكانت قد سبقته زوجته «جمالات» ابنة عمه وابنها «أسعد» ذو الثلاث سنوات، ظلت الشرطة مع «طلبة» حتىٰ استقل هو وأسرته القطار المتجه إلىٰ القاهرة، كان «طلبة» يحمل مبلغ مائتين جنيهًا أعطاهم له الشيخ صالح ليبدأ به حياة جديدة.



بعد اثنتي عشرة ساعة سفر وصل القطار إلىٰ محطة مصر، حمل «طلبة» ابنه «أسعد» وأمسكت «جمالات» في جلبابه حتىٰ لا يتوه أحد منهم في زحام القاهرة، سار «طلبة» ومعه أسرته حتىٰ وصلا إلىٰ حارة «الشماشرجي» بحي الشرابية حيث يقيم صديقه «إسماعيل».

«إسماعيل» يعمل سائقًا علىٰ سيارة نقل، كان قد عاد لتوه من عمله ويضع قدمه في ماء ساخن وملح أعدته زوجته لإراحة قدميه، سمع صوتًا أمام البيت ينادي عليه:

- يا حاج «إسماعيل».
- مين بينادي؟
- أنا «طلبة عتمان» يا «إسماعيل».

هب «إسماعيل» لاستقبال «طلبة»، احتضنه، وبعد الترحيب والسلامات، نظر «إسماعيل» إلىٰ زوجته وقال:

- دا «طلبة» يا «إعتماد» اللي ياما حكيت لك عنه، قعدنا سنين مع بعض في الجيش وكنا زي الاخوات، لقمتنا واحدة

وسرايرنا جانب بعض في نفس الخيمة، حاربنا في سينا سوا، وكمان يعتبر بلدياتي بلدهم جنب بلدنا.

اصطحبت «إعتماد» زوجة «إسماعيل» «جمالات» إلىٰ دورة المياه لتغسل وجهها هي و«أسعد»، ثم أحضرت «إعتماد» جلبابًا لـ «جمالات».

كان «طلبة» يجلس مع «إسماعيل» علىٰ أريكة في مدخل البيت يتجاذبان الحديث عن الأيام الخوالي، سأل «إسماعيل» «طلبة»:

- ألا أخبار «مطاوع» إيه يا «طلبة»؟

تنهد «طلبة» عندما ذكره «إسماعيل» بـ «مطاوع»:

- من يوم ما طلع الجبل ما شفتهوش إلا مرة واحدة، نزل البلد متخفي لما بلغه خبر موت أمه، حَوِّد عليّ شرب معايا الشاي ومشىٰ علىٰ طول.
- حد يصدق إن «مطاوع» الطيب أبو قلب زي اللبن الحليب يبقىٰ ابن ليل!
- غصب عنه يا «إسماعيل» كان نازل إجازة من الجيش ٩٦ ساعة لما حصلت العركة في سوق الجمعة بالقرية، بين ابن خاله وبعض البياعين الأغراب عن القرية، حاول «مطاوع» التهدئة وفض العركة، اتكاتروا علىٰ ابن خاله، حاشهم «مطاوع»، واحد منهم أخرج مطواة وحاول بيها ضرب

«مطاوع»، دافع «مطاوع» عن نفسه وضربه بقالب طوب مات، من يومها طلع الجبل قبل الشرطة ما تقبض عليه.

رحبت زوجة «إسماعيل» بـ «طلبة» و«جمالات» و«أسعد»، وقامت «جمالات» تشارك «إعتماد» في تجهيز الطعام، وبعد تناول الطعام، قص «طلبة» علىٰ «إسماعيل» ما مر به، طمأنه «إسماعيل» وقال له:

- أنت أخويا يا «طلبة»، من النهاردا البيت دا بيتك، البيت ملكي ومفيش معايا أي ساكن، الدور اللي فوق فيه حجرة عاملها للضيوف بقت سكن ليكم، وعفشة المية تبقىٰ مشتركة ولما ربنا يسهل نبني ليك عفشة مية.

عاش «طلبة» في بيت «إسماعيل» كأخيه وجمع الحب بين «إعتماد» زوجة «إسماعيل» و«جمالات» زوجة «طلبة»، وحظي «أسعد» برعاية الأسرتين، فلم يرزق «إسماعيل» وزوجته بالخلفة.

عمل «طلبة» مناولًا في مجال المعمار غير المنتظم، كان يعمل يومًا ويظل دون عمل أيام.

في أحد الأيام عاد «إسماعيل» إلىٰ المنزل وفي جلسة العصاري أما باب المنزل قال لـ«طلبة»:

- قدامي عربية نص نقل قديمة صاحبها بيبيعها بتمن كويس بس فلوسي مش مقضية.

- أنا معايا قرشين كنت محوشهم وقرشين كان مديهم لي الحاج «مصلح» لما سبت البلد خدهم وكمل بيهم تمن العربية.
- طيب ما تدخل معايا شريك.

تعلم «طلبة» قيادة السيارات واستخرج رخصة، كانا يعملان في نقل الخضار من سوق روض الفرج أو ينقلان السمك من شادر السمك بغمرة.

جمعت الصداقة بين «طلبة» و«إسماعيل» مع «هريدي» بائع العرقسوس و«سمعان» بائع العطارة، وكان من المعتاد أن يجتمعوا بعد صلاة العشاء لشرب الشاي وتدخين المعسل أمام بيت «إسماعيل»، وكان «عزام» سمكري السيارات ينضم إليهم في بعض الأوقات.

حارة «الشماشرجي» قديمة بُنيَ أول بيوتها ١٩٢٠ علىٰ أرض أهداها «حبيب باشا السكاكيني» لـ «عثمان شماشرجي» في عهد الملك فؤاد، بنىٰ «عثمان» علىٰ قطعة الأرض بيتين علىٰ الطراز المملوكي القديم، وقد احتفظ أحفاد «الشماشرجي» بصورة للملك «فؤاد» معلقة علىٰ جدار ومكتوب أسفلها «فؤاد الأول ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور»، نوافذ البيتين بُنيَ علىٰ نوافذها مشربيات مصنوعة بشكل فني من الخشب المعشق تتيح لنساء المنزل رؤية ما

يدور خارجه ولا يراهم من بالخارج، وبدأ «عثمان» في استقدام أقاربه ذوي البشرة السمراء من النوبة، بنوا بيوتًا مجاورة لبيته معظمها من طابقين ولا تمت بصلة للطراز الذي بني عليه بيت «الشماشرجي».

الحارة مغلقة علىٰ سكانها، مدخلها ومخرجها واحد (حارة سد)، مجاورة لشريط السكة الحديد المخصص للقطارات التي تتجه للفرز والصيانة، بآخر الحارة تقع الخوخة وهي بيت له بابان، الباب الخلفي يفتح علىٰ الحارة الموازية لها، معظم سكان الحارة حاليا من محافظات الوجه القبلي (صعيد مصر) تجمعهم القرابة، وقد أتوا بعاداتهم وتقاليدهم وبقوانينهم الوضعية وأعرافهم ولهجاتهم، يحكمهم حسن الجوار ومتانة العلاقة.

القطارات التي تمر بالمنطقة تسير ببطء، يتعمد سائقو القطارات إطلاق صوت التنبيه علىٰ أعلىٰ درجاته وباستمرار، الجرار يجر عدد كبير من العربات، ينتهز اللصوص فرصة تهدئة القطارات وقلت الحراسة فيقفزون داخلها، يخلعون كل ما تطاله أيديهم، يلقونه من القطار لرفقائهم المنتظرين علىٰ القضبان ويبيعونها خردة، وجود أكثر من فتحة بسور السكة الحديد، يعتبر ملاذًا وطريقًا للهروب من مطاردات الشرطة.

اعتاد سكان حارة «الشماشرجي» علىٰ الصخب حتىٰ إن أصوات القطارات واهتزاز الأرض والبيوت في أثناء سير القطارات لم

تعد تلفت انتباههم أو توقظ النائم منهم، أضف إلىٰ ذلك الضجيج الصادر من متجر «عزام» لسمكرة السيارات الذي لا يلتزم بأي مواعيد لإغلاق ورشته.

في جلسة بعد العشاء، سأل «طلبة» عن سر تسمية الحارة بـ «الشماشرجي»، قال «إسماعيل»:

- اللي أعرفه إن «الشماشرجي» من جدود الأسطىٰ «عزام»، والبيتين في أول الحارة هو اللي بانيهم.

شارك «هريدي» في الحديث:

- «عثمان» كان «شماشرجي» في قصر الملك فؤاد من أيام ما كان لسه «سلطان»، و«عزام» بيقول إنه كان ليه حظوة كبيرة عند الملك وكان مسموح ليه يدخل كل حجرات القصر وكان كاتم أسرار الملك، و«عزام» مصمم أن الملك أنعم عليه بالبشوية.

أمسك «سمعان» بطرف الحديث:

- سكان الحارة من النوبيين كلهم رجعوا بلادهم بعد ثورة «جمال عبد الناصر» سنة ١٩٥٢ وباعوا البيوت، معظم اللي اشتروا البيوت كانوا قرايب من الصعيد عشان كدا الناس مسميين الحارة حارة الصعايدة، لكن فضل اسم الحارة الرسمي علىٰ قديمه «الشماشرجي»، الحمد لله ناس الحارة

طيبين ويعرفوا الأصول كأننا عيلة واحدة، مفيش غير «عزام»، بيشاكل دبان وشه والناس بتتجنبه.

رد «طلبة»:

- ربنا يكفينا شره.

تجنب «طلبة» «عزام» الذي لم يعجبه الأمر، أراد أن يثبت لـ «طلبة» أنه زعيم الحارة، حاول الاحتكاك به أكثر من مرة، في كل مرة كان «طلبة» يؤثر السلامة، إلىٰ أن تعمد «عزام» الاحتكاك بـ «إسماعيل» وهو مريض، حاول «طلبة» تهدئة الأمور، استغل «عزام» الموقف ودفع «طلبة» دفعة قوية أخلت بتوازنه وكاد أن يسقط أرضًا، خرج «طلبة» عن شعوره ولم يشعر بنفسه إلا وهو رافع «عزام» ثم ألقىٰ به أرضًا، تجمع أهل الحارة وفرقوا بينهم وأن لم يخفوا سعادتهم بهزيمة «عزام»، وفي المساء عُقد مجلسٌ للصلح، بعدها تعايشا وبمرور الوقت أصبحا أصدقاء.

مرض «إسماعيل» بداء الكبد، صاحبه «طلبة» في أثناء تردده علىٰ المستشفيات الأميري (التابعة للدولة)، أصبح العمل ثقيلًا عليه، وهو يحتاج إلىٰ الراحة بأمر الأطباء، تحمل «طلبة» عبء العمل ومصاريف البيت، وفي جلستهم المعتادة مساء كل يوم أمام باب البيت، قال «إسماعيل»:

- العيا تقل عليا يا ابن عمي.

- ربنا يشفيك.
- أنا نويت أرجع بلدنا أموت وسط أهلي.
- يا راجل بعد الشر عليك، بكرا تخف وتقوم بالسلامة.
- مش باين يا «طلبة»، أنا خلاص رتبت نفسي علىٰ السفر، يا ريت تشتري البيت ونصيبي في العربية، الفلوس مش مشكلة لما ربنا يرزقك أبقىٰ ابعت لي ولو أجلي جه ابعت الفلوس لـ «إعتماد» مراتي.

أرسل «طلبة» لأحد أقربائه بالبلد وكان علىٰ علاقة طيبة معه ويتولىٰ زراعة قيراطين أرض يملكهم «طلبة» وعرض عليه شراء الأرض، وافق وأرسل ثمن البيع لـ «طلبة» فدفع حق البيت لـ «إسماعيل».

احتفظ «طلبة» في بلدهم بالبيت المبني بالطوب اللبن الذي ورثه عن أبيه.

كان هم «طلبة» الأول ألا يعرف أحد حقيقة ما حدث معه في بلدته، فالحارة معظم سكانها ينتمون إلىٰ صعيد مصر وتقديم الكفن لمنع الثأر عار عندهم.

راج حال «طلبة»، باع السيارة واشترىٰ سيارة مستعملة حالتها أفضل، نكس البيت وبنىٰ حجرتين بالدور العلوي.

أحب الجميع «طلبة»، أصبحت له مكانة مرموقة في الحارة، فهو يجيد التعامل بحب مع الجميع، رجل بسيط، قوي فارع الطول رغم اقترابه من سن الخمسين إلا أن مظهره لا يدل علىٰ ذلك فلون شعره أسود بلون الليل لم تتخلله الشعرات البيضاء ويبدو شعر صدره كثيفًا يطل من تحت الصديري، صادق، شهم، نظيف القلب والملبس، له شارب كثيف يعتني به وبتهذيبه، احتفظ بزيه الصعيدي (جلباب وأسفله صديري وعلىٰ رأسه عمامة)، دائمًا يقف في صف الضعيف، لا يبخل بما في يده، كتوم لا يحب الثرثرة.

حب أهل الحارة لـ «طلبة» جعل «عزام» يحقد عليه ويحسده علىٰ التفاف الناس حوله، لكن «طلبة» لا يعطي «عزام» الفرصة فدائمًا يرضي غروره ويقدمه عليه.

بنىٰ «طلبة» أمام منزله مصطبة بالطوب والأسمنت وفوقها مصباح كهرباء ليتسامر هو وأصدقاؤه «هريدي» بائع العرقسوس و«سمعان» بائع العطارة كل مساء ويحتسون الشاي ويدخنون «الجوزة بالمعسل»، وكثيرًا ما ينضم إليهم «عزام» وبعض رجال الحارة، وهو المجلس الذي يتم حل جميع المشاكل الخاصة بالحارة وسكانها فيه. بيت «طلبة» مميز عن بيوت الحارة، فقد أعاد طلاء جدرانه الخارجية باللون الأبيض وتزين جدرانه رسومات تم نقشها بعد عودته هو وزوجته من حج بيت الله الحرام.

أنجبت «جمالات» «هاني» و«زينب».



أمطرت السماء فحولت أرض الحارة إلىٰ برك طينية وتسربت من خلال أسقف المنازل.

البرك الطينية تذكر «جمالات» بقريتها، فتشعر بالحنين، تعيدها بذاكرتها عندما كانت فتاة يتسابق شباب البلد لخطب ودها، والحجج التي كان يسوقها ابن عمها «طلبة» للحضور للمنزل ليراها ويساعد أباها في صنع قوالب الطوب النيء (اللبن) من الطمي الذي يأتي به الفيضان ويتراكم بقاع الترعة وعلىٰ جانبيها ويخلطه بالتبن ويتركه يتخمر قبل أن يضعه في القوالب لصنع الطوب، تبسمت، هون عليها غربتها صداقتها بـ «أم عطية» و«أم مريم» زوجة «سمعان»، و«حسنة» زوجة «هريدي»، خاصة «أم عطية» فهما لا يفترقان طوال اليوم.

❋❋❋❋

يخرج «هريدي» بائع العرقسوس كعادته في الصباح الباكر، أوصىٰ زوجته بتنظيف وتجهيز حلة حمص الشام (الحلبسة) وقال لها:

- عمَّري الباجور بالجاز وجربيه ولو محتاج تصليح وديه للسمكري، وخرجي حلة الحمص، وبلِّي الحمص عشان تعلقيه علىٰ النار بالليل، من بكرا أسرح بالحمص الدنيا بردت وسوق العرقسوس مش ماشي، الناس عاوزة تشرب حاجة تدفيهم.

تسكن «أم عطية» بالطابق الثاني من بيت المعلم «هريدي» وفوق سكنها سطح المنزل وقد تسربت مياه الأمطار إلىٰ داخل المسكن فظلت طوال الليل تجفف المياه الناقعة من السقف، وطالبت المعلم «هريدي» صاحب البيت بتنفيذ وعده وأن يسد الشقوق الموجودة بين بلاط السقف بالأسمنت.

خرج «هريدي» يدفع عربته اليدوية أمامه، العربة من الخشب مبطن سطحها بطبقة من الصاج به فتحة لتصريف المياه خارج العربة، مثبت فوقها قارورتان من الزجاج بكل منها صنبور من أسفل خاصة بالعرقسوس وأحيانًا يجعل إحداهما للخرُّوب وأعلاها غطاء من النحاس الأصفر اللامع علىٰ هيئة هلال، وبالعربة بستلة من المعدن بها ماء لغسيل الأكواب ومثبت بالعربة حامل للأكواب، وتوجد فتحة بالعربة يضع فيها موقد الجاز في أثناء بيعه حمص الشام، يحرص «هريدي» علىٰ نظافة العربة ويلبس فوق جلبابه مريلة بيضاء، عجل العربة

يصـدر صـوتًا كصـوت الحشـرجة، قـرر أن يقـوم بتشـحيمه بعـد عودته.

شعر «هريدي» برعشة خفيفة، نظر إلىٰ السماء الملبدة بالغيوم، تأكد أنها ستمطر، ألقىٰ تحية الصباح علىٰ «أم عطية» جارتهم في السكن وهي جالسة أمام باب البيت أمامها موقدها وفوقه طاسة كبيرة لقلي الطعمية والبطاطس والباذنجان والفلفل.

- صباح الخير يا «أم عطية».
- يسعد صباحك يا معلم «هريدي»، ربنا يعينك ويرزقك، الحمد لله، أكلك جاهز يا معلم.
- زودي قرن فلفل حامي وبتنجناية مخللة.
- من عيني.

ودعا لها بالخير والرزق الحلال.

ينتقي «هريدي» موضعًا لقدمه حتىٰ لا ينزلق بسبب المياه التي تبلل أرض الحارة وتختلط مع التراب وتحوله إلىٰ طين، يدق بالصاجات بطريقة منغمة إيذانًا ببدء يومه ويصيح «شفا وخمير يا عرقسوس»، يسير وهو يتمتم يا «رزاق يا كريم يا فتاح يا عليم».

أبواب الشقق داخل المنازل لا تغلق نهارًا فمعظم الرجال بأعمالهم، فتتصرف النساء بحرية، تشتم رائحة الطعم عند طهيه بمجرد مرورك بجوار أي منزل، وتحرص السيدات علىٰ تبادل أطباق

الطعام، وعند حضور أحد الرجال إلىٰ المنزل ينبه السيدات ويصيح بصوت مسموع بكلمة «يا ساتر» فتأخذ السيدات الحيطة.

تلقي «أم أسعد» تحية الصباح علىٰ «أم عطية».

- صباح الخير يا «فواكه».
- يسعد صباحك يا «جمالات»، طمنيني علىٰ «زينب».
- الكحة مش راضية تسيبها، مكلبشة في صدرها وطول الليل بتكح، والحكيم قال عندها سعال ديكي.
- حطي لها جرنال علىٰ صدرها تحت الهدوم يمنع الهوا ما يدخلهاش ولما يعدي المعلم «سمعان» خدي منه ورق جوافة وورق تليو اغليه واعصري عليه ليمون واسقيها يساعد مع الدوا اللي وصفه الحكيم، ربنا يشفيها ويطمنك عليها.
- أخوها «هاني» طلع بيها فوق سطوح البيت من الصبح بدري تشم هوا الصبحية.

ثم قالت لها معاتبة:

- فين يا «فواكه» الشرز (بلوفر) اللي قلت لك تشغليه لـ «زينب».
- حاضر يا حبيبتي، حلاوة المفتقة واخدة وقتي كله، موسم بقىٰ والطلبات عليها كتير.

- «زينب» مش راضية تسيب أبوها طول الليل نايمة في حضنه، قايم بيكح.

ارتجف قلب «أم عطية» عندما علمت أن «طلبة» قد يكون أصيب بالعدوىٰ، تظاهرت بالابتسام وقالت لها:

- أكليه من المفتقة اللي بعتها لكم امبارح، دي متمونة وعاملاها مخصوص عشانكم، والشفا من عند ربنا.
- كله بأمر الله.
- مش هاوصيكِ تاني علىٰ الشرز لفحة البرد وحشة، والعيال ضعيفة، جهزي أكل «طلبة» و«أسعد».
- من عيني يا حبيبتي.

وقبل أن تدخل «أم أسعد» قالت لها «فواكه»:

- قولي للمعلم «طلبة» ياخدني معاه في سكته لحد السوق أجيب فول مدشوش وخُضرة بصل وثوم وشبت وكزبرة وبقدونس عشان الطعمية، وبالمرة أجيب فول أنبته، الشتا بيحب العدس والفول النابت، والله التجار يا «أم أسعد» غلوا الفول والخضرة.
- هنلاقيها منين ولا منين يا «أم عطية»؟
- المرة اللي فاتت شيلت شوال الفول علىٰ دماغي طول السكة، سواق الميكروباص قال لي الأجرة غليت قرشين، وعايز ياخد أجرة علىٰ الشوال كأنه نفر، وسمعت أن كيلو

اللحمة حصل جنيه بحاله، سمعت أن السادات لما كان بيزور الصعيد هتفوا الأهالي وقالوا: «قولي يا جيهان لأنور بيه كيلو اللحمة بقىٰ بجنيه».

- الناس هتاكل بعض يا حبيبتي الغلا وحش.

أحد سكان الحارة راكب موتوسيكل يخرج من شكمانه دخان كثيف، يمر مسرعا خشيت «أم عطية» من طرطشة الميه والوحل صاحت:

- علىٰ مهلك يا أخويا، الوحلة بتطرطش علىٰ الأكل وعلينا.

يلقي «سمعان» بائع العطارة المتجول تحية الصبح علىٰ «أم عطية» ويزق عربته الغارزة عجلاتها في الطين، يساعده ابنه «إبراهيم» بالزق من خلف العربة.

لمحته «أم أسعد» نادت علىٰ «أسعد»:

- سيب اللي في ايديك وساعد المقدس «سمعان»، العربية مغروزة في الوحلة،

عاد «سمعان» ليأخذ الفطور من «أم عطية» وسألها، أمتي ها تعملي فول.

الأسبوع الجاي يا مقدس أعمل فول نابت وعدس، أم «مريم» عامله أيه يا «سمعان»؟

- نشكر الرب، السكر عالي عليها ومأثر علىٰ عينيها.

- ربنا يشفيها، لازم أطمن عليها دي حبيبتي، ها نروح لها أنا و«أم أسعد» العصر نطمئن عليها.

تنادي «أم عطية» علىٰ ابنها النائم ليجلس علىٰ فرشة الطعمية، بينما تجهز نفسها لتركب مع «طلبة» لشراء متطلباتها، وتنادي «أم أسعد» علىٰ ابنها «هاني» الموجود فوق سطوح المنزل مع أخته «زينب»:

- يا «هاني» افتح العشة خرج البط والفراخ.

رائحة الغنم تعم المكان، الغنام يسوق أمامه بعض الماعز والخرفان، رافع ذيل جلبابه بينما أثار الطينة تبدو واضحة علىٰ حذائه وتمتد إلىٰ سرواله وفروة الغنم،

ارتدت «أم عطية» جلبابها القطيفة الأسود، مشطط شعرها الناعم الطويل وكحلت عينيها ووضعت طرحة سوداء علىٰ رأسها ووقفت تتجاذب مع «أم أسعد» أطراف الحديث في انتظار خروج «طلبة» بالعربة.

«أسعد» يجهز العربة، ونادىٰ علىٰ «هاني»:

- تعالىٰ وهات معاك مياه عشان رداتير العربية.

قالت «أم عطية»:

- النبي حارسهم وهاديهم ايدهم مع أبوهم، مش زي الموكوس «عطية» ابني، عايز ياكل وينام.

تخمس «أم أسعد» وتحوقل في سرها وتقرأ المعوذتين حتىٰ لا تصيب عين «أم عطية» أولادها.

«أسعد» و«هاني» لا يفترقان إلا عند ذهاب «هاني» إلىٰ المدرسة أو مرافقة «أسعد» أبيه كتباع في العربة، ورث «هاني» و«زينب» جمال أمهما «جمالات» وشعرها الناعم، وقد اشتهر «هاني» بشقاوته وخفة دمه، أما «أسعد» فقد ورث لون بشرة أبيه المائلة للسمرة وقوامه الفارع، لكنه انطوائي يفضل العزلة وقليلًا ما يختلط بالشباب من سنه.
يرفع «هاني» جركن المياه، توقف وتسمرت قدماه وصاح فزعًا:

- تِعبان، تِعبان.

سارع «أسعد» لنجدة أخيه، سمع «سمعان» استغاثة «هاني» قام مسرعًا وأمسك بحجر كبير وسارع لنجدة «أسعد» و«هاني»، كان «هاني» يحتمي خلف أخيه بينما «أسعد» يمسك بعصا يحاول أن يضرب بها الثعبان، ألقىٰ «سمعان» الحجر علىٰ الثعبان فقتله، أتي «طلبة» مهرولًا، شكر «سمعان»، أحضرت «أم عطية» بعض الماء ليشربه الأولاد وتزول عنهم الخضة، قال «سمعان»:

- هاجيب لكم شوية شيح توزعوه في المكان لطرد أي ثعابين موجودة، علىٰ فكرة التعبان دا غريب عن المكان لو ليه جحر كان استخبىٰ فيه.

رفع «هاني» الثعبان الميت بعصا، وسارع ليريه لأقرانه في الحارة.

كان «طلبة» قد قطع صلاة الضحىٰ عند سماع صياح «هاني»، عاد وأكمل صلاته وزاد ركعتين شكرًا لله علىٰ إنقاذه ولديه، ثم قرأ ورده اليومي، مشط شعره وأرتدىٰ جلبابه الأبيض وتحته الصديري وأحكم وضع عمامته فوق رأسه، جلس وألبسته «جمالات» حذائه، وقف يستعدل شاربة بيده، بدا كعملاق بقوامه الفارع الممشوق، حتىٰ أن أحد السواح الأجانب كان قد شاهد «طلبة» في زيارته مع «سمعان» لدير «مار جرجس» بمنطقة مصر القديمة، أشار إلىٰ «طلبة» وتبسم وتكلم مع مرافقه، ترجم مرافقه لـ«طلبة»:

- الرجل عالم آثار إنجليزي يقول عنك أنك تشبه الفرعون «تحتمس الثالث» ويطلب أن يلتقط معك بعض الصور.

ضحك «سمعان» وقال لـ «طلبة»:

- شكلك صحيح زي جدودنا الفراعين المنحوتين علىٰ جدران المعابد.

لاحظ «طلبة» وجود «أم عطية»، تبسم لها حتىٰ بدت أسنانه البيضاء أسفل شاربه الممشط:

- صباح الخير يا «أم عطية».
- يسعد صباحك يا سي «طلبة».

ناولته قرطاس الطعمية والبطاطس المقلية، وقرطاس به فلفل حار وبذنجان مخلل، وتبدو آثار الزيت واضحة علىٰ

الأكيـاس، وحزمـة جرجيـر، وبعـض الأرغفـة البلديـة الطازجـة، فشكرها.

أخـذ «طلبـة» يفـرك ظهـر الأرغفـة ببعضـها ويخـبطهم بلطـف في بعضهما ليتخلص من الردة الزائدة (دقيق غير غليظ)، وجلس علىٰ المصطبة أمام المنزل ونادىٰ «أسعد»:

- تعالىٰ يا «أسعد» افطر والأكل سخن.
- ماليش نفس.
- واحنا في السوق هات الفطار اللي أنت عاوزه.

انتهىٰ «أسعد» و«هاني» من تجهيز العربـة، صعد «طلبـة»، جلس «أسعد» بجواره ثم مد يده يساعد «أم عطيـة» للصعود لتجلس بجـوار «أسعد».

خرجت «زينب» كعادتها لتوديعهما تضحك وتلوح لهما:

- هاتوا لي حاجة حلوة وأنتم جايين.
- حاضر.

«زينب» حبة عين أبويا وأمها، ورثـت جمالهـا الطبيعـي عـن أمهـا «جمالات» التي أتمت عامها الثاني والأربعين، مـا زالـت آثـار الجمـال تلازمها، يحبها «طلبة» ويحترمهـا ويستمع إلىٰ رأيهـا، فهـي ابنـة عمـه وكاتمـة سـره ورفيقتـه في السـراء والضـراء، تتمتع بـاحترام كـل سـكان الحارة نساء ورجالًا فهي عفيفة اللسان كثيرة الدعاء بالخير للجميع.

«توكلنا علىٰ الله».

يلقي «طلبة» بالتحية علىٰ كل من يقابلهم.

طلب «أسعد» من أبيه أن ينزل بجوار الفرن ليحضر «عيش فينو» وجبنة رومي ليفطر بهما.

يكتم «طلبة» في نفسه هوىٰ لـ «أم عطية» وتبادله هي نفس الهوىٰ، ولكن حبهما صامت، وعندما تتلاقىٰ أعينهم تشعر «فواكه» بالأمان وبأنها تمتلك الدنيا، لم يتصارحا أبدًا ولن يتصارحا إلا بأعينهما التي يحرصان علىٰ خفضها كلما تلاقت نظراتهم، بينهما «جمالات» التي يحبها الاثنان، ولأن كل منهما يحرم علىٰ نفسه المصارحة، فالنظرة السريعة تتحدث بينهما وتقول كل ما يرغب القلب في قوله بصدق، يمنعان حتىٰ الابتسامة من التسلل إلىٰ وجهيهما رفق النظرة لكنهما لا يستطيعان إخفاء اتساع حدقة أعينهما، فنظرة صادقة أبلغ من أي حديث.

كثيرًا ما تركب معه العربة ليوصلها في طريقه إلىٰ السوق، وجودها بجواره يشعره بالبهجة وبراحة شديدة، رغمًا عنه تزوره في أحلامه، حلم بها في الليلة السابقة حورية تخرج من قلب النيل في ضوء القمر، ترتدي ثوبًا حريريًّا أبيض اللون يكشف عن مفاتنها، ينسدل شعرها الناعم الطويل خلف ظهرها، مشت إليه في استحياء، تحمل في يدها كوبًا من الماء المحلىٰ بالسكر ومعطر بماء الزهر، ترفع يدها لفمه تسقيه، غرق في عينيها، احتضنته، مر بيده علىٰ شعرها وتسللت

يده إلىٰ ظهرها، قال لها: «بحبك وبتمناكِ يا «فواكه»، نادها باسمها الحقيقي، ونادته هي بأبي «زينب» وهو لقب لا يناديه به أحد، غابا معًا عن الدنيا، وفي الصباح استحم «طلبة».

«طلبة» يخرج دائمًا متوضئًا، يحرص ألا ينتقض وضوءه بملامسة يد أي امرأة، استعدت «أم عطية» للنزول من العربة نظرت إلىٰ «طلبة» ضاحكة وقالت:

- بتعبك معايا يا أبو «زينب».

باغتته الكلمة، ضحك في سعادة لم يستطع إخفاءها، جال بخاطره: «هل زارها في حلمها؟»، في سره استغفر ربه، سارع بالنزول من العربة ليأخذ بيدها، مست يدها يده، أبقاها في يده، نظر في عينيها وذاب، يا إلهي ما أجملهما! شعر بجمال اللحظة، قال لها:

- «فواكه».

نظرت مبتسمة.

- أنا راجع بعد العصر، لو كنتِ لسة ما روحتيش ابقي تعالي تروحي معايا.

ارتجف قلب «أم عطية» رغمًا عنها، أطربها مناداته لها بـ «فواكه»، ارتبكت، لاحظ ارتباكها، تبسم لها فاطمأنت، أومأت برأسها وقالت:

- ها استناك نروح سوا يا «طلبة».

مضت إلىٰ حال سبيلها وذهب هو إلىٰ المسجد ليجدد وضوءه، عادت معه ومع «أسعد» بعد العصر.



الفصل الرابع

يكره «أسعد» العمل مع أبيه لكنه لا يجد عملًا غيره، رغم تقديمه أوراقه في مكتب العمل لم يتم تعينه، يلعن حظه العاثر ولا ينسىٰ تنمر زملائه عليه أيام الدراسة، ولأنه لا يحب الاختلاط كانوا يتحدون ضده، كرههم وكره اللقب الذي أطلقوه عليه (أبو طويلة الشيال) لعلمهم أنه يعمل مع أبيه علىٰ العربة.

يخرج الأولاد من الحارة للهو علىٰ قضبان السكة الحديد، فالسور المحيط بالقضبان به أكثر من فتحة قام الأهالي بفتحها للعبور من خلالها إلىٰ شارع أحمد حلمي، «هاني» رفيق دائم للأطفال في لهوهم، وفي المساء إذا كان الجو صحوًا يتشاركون في اللعب بالطائرات الورقية.

المعلم «عزام» وريث «عثمان الشماشرجي» أقدم سكان الحارة، رجل فظ ينصب نفسه زعيمًا للحارة، صوته دائمًا عال جهوري لا ينتقي ألفاظه، يمتلك بيتين بمدخل الحارة، بكل بيت منهما زوجة، وله محل لسمكرة السيارات بأحد المنزلين،

لـم يكتـفِ بالـدخل الـذي يـدره عليـه عملـه في سـمكرة السـيارات وإيجـار المنـزلين، اسـتغل أسـطح المنـازل وشـيد فـوقهم أكثـر مـن حجـرة مصـنوعة مـن الخشـب أشـبه بالعشـش، ولأن الحجـرات ملتصقة ببعضها فالخصوصية فيها منعدمة.

يرتفـع صـوت «عرفـة» بـائع الكرشـة ولحمـة الـرأس وهـو يسـب جـاره «حامـد» السـباك، يتجمـع الأهـالي للفصـل بينـه وبـين «حامـد»، يصيح «عرفة»:

- ابن الكلب خارم الجدار بين أوضتنا وأوضته وبيبص علىٰ مراتي وهي بتغير هدومها.
- أنت ابن ستين كلب ومفتري وكداب.

يتطور الزعق إلىٰ شجار بالأيدي، يتدخل البعض للفصـل بينهمـا بعد أن سال الدم من أنف «حامد» فقد نالته ضربه رأس مـن عرفـه، لـم تفوت النساء الفرصة لإظهار قوتهم وسيطرتهم، تحـاول كـلً منهن أن تجعل صوتها شبيهًا بصوت الرجال ويبدأ فاصل من الردح بـين زوجـة «عرفة» وزوجة «حامد»:

- الراجل اللي ما يعرفش أصول الجيرة بيبص عليـا وأنـا بـاغير، إلهي تعمىٰ يا بعيد.
- هايبصلك علىٰ إيه يا معفنـة يـا معصعصـة؟ علىٰ الجـرب ولا القشف.

- لو كنتِ ماليه عينيه ماكانش بص لغيرك يا عرة النسوان يا لمامة.
- قصري الشر يا عورة.
- هاخلي اللي ما يشتري يتفرج عليك.

اشتبكت الزوجتان بالأيدي.

فور حضور «أم أسعد» و«أم عطية» هدأت الخناقة، تنحت «أم عطية» بزوجة «عرفة» جانبًا، نظرت إليها بنظرة ذات مغزىٰ وقالت لها:

- حبكت يا ولية تقلعي هدومك قدام الشق اللي في الجدار؟ سديه بحتة خشب ويبقىٰ يا دار ما دخلك شر.

❋❋❋❋

أجواء الحارة متغيرة، فيها لمحة من السعادة، فقد حان موعد زواج «مريم» ابنة المعلم «سمعان» بائع العطارة المتجول، «سمعان» لا يحمل هم تكاليف الفرح، فله مجاملات مع معظم سكان الحارة، وعلاقته طيبة بالجميع عدا «عزام».

تبدأ احتفالات البنات بالعروس قبل الفرح بأيام، تتجمع صديقاتها في المساء أمام بيتها علىٰ شكل دائرة، إحداهن تمسك بطبلة تدق عليها علىٰ نقرة ونصف، وأخرىٰ وسطهم ترقص متتبعة دقة الطبلة، ويتبادلون الغناء فكلٌّ منهن تغني مقطعًا من أغنية والباقي يرددون خلفها (كورس) وجميعهن يصفقن، ينظرون تجاه بيت

«هريـدي» حيـث تقطـن «أم عطيـة»، يترقـبن ظهورهـا، وفـور ظهورهـا تتعـالىٰ الصـيحات مرحبـة بهـا، تجلـس بجـوار «أم «مـريم»، وتمسـك بالطبلة، وتدق عليها وتغني بصوت جميل:

«هـو اللـي خطبهـا، هـو اللـي نقاهـا، وراح قـال لأمـه أنـا ميـت في هواها.

يلا يا أبو «مريم» جَوِّز «مريم» والنبي، جوزها وهي في عزها، قبل ما يكبر صدرها».

تطأطأ «مريم» رأسها خجلًا مع ضحكات البنات، وتستمر «أم عطية» في الغناء وهن يصفقن:

«يا اللي علىٰ الترعة حوِّد علىٰ المالح».

ترد البنات:

«يا اللي علىٰ الترعة حود علىٰ المالح
وسطي بيوجعني
من إيه؟
من رقص امبارح».

استلمت «أم مريم» الدف وبدأت تغني:

«وصلي صلي
صلي

علىٰ النبي صلي

صلي

اللي ما يصلي

صلي

أبوه أرمنلي

صلي

وأمه يهودية

صلي».

تعود «أم عطية» للغناء:

«هيصة يا أولاد

هيصة

عند «أم «مريم»

هيصة

واتدحرج واجري يا رمان، وتعالىٰ علىٰ حجري يا رمان».

وتستمر الأفراح يوميًا حتىٰ يحين موعد ليلة الحنة السابق ليوم الدخلة (الإكليل)، فيأتي دور شباب الحارة.

من الصباح الباكر شارك «أسعد» شباب الحارة في تسوية الأرض وتنظيفها، وردم الأماكن الموحلة بالتراب، وفرش طبقة من الرمال فيتغير شكل أرضية الحارة وتبدو ذهبية اللون، قام الشباب بتلوين

نشارة الخشب وبدأ «أسعد» يشكل باللون الأخضر تمساحًا داخل بحيرة باللون الأزرق، وعلىٰ رأس البحيرة علم مصر بألوانه الثلاثة يتوسط اللون الأبيض اسم «مريم» وعريسها «جرجس».

يترقب «إبراهيم» أخو «مريم» وصول العريس وعند ظهوره بأول الحارة صاح:

- العريس وصل.

اصطحب «جرجس» معه بعض أصدقائه من الشباب وأخته وبعض البنات من أقاربه، انضموا إلىٰ بنات وشباب الحارة، التف الجميع حول العريس يصفقون ويغنون لـ«مريم».

«أهو جالك أهوه، ريح بالك أهوه».

بدأت مراسم الحنة التي كانت «أم عطية» قد أعدتها، قامت «أم عطية» بوضع الحنة في يد وقدم «مريم»، ووسط مظاهر الفرحة تقدمت البنات لوضع الحنة في كفوف أياديهن، ومن أراد من الشباب وضع الحنة في يده وضعتها له، والبعض اكتفىٰ بوضع الحنة في كعب رجله، أخرج «طلبة» أمام باب منزله بعض الدكك الخشبية وبعض الكراسي جلس عليها الرجال يوزعون الأدوار عليهم، فمنهم من سينقط «سمعان» بإحضار دستتين من الكراسي ومنهم من سيحضر قماش الفراشة، ومنهم من سيوفر شربات الورد، ومنهم من سيتكفل بالإضاءة الملونة، وحضر مرسال من الحاج «رجب» أخبرهم بأن

الحاج سيرسل مائة وجبة غذائية تحية ونقطة لـ «سمعان» وضيوفه، مر علىٰ رأس الحارة حامل المزمار البلدي المتجول ومعه حامل الطبلة، انضموا للاحتفال وأشعلوا الفرح حيث راح الشباب والشابات يرقصون علىٰ نغماتهم، وقام الرجال بمكافأة حامل المزمار بما تيسر معهم من مال، استمر الغناء والرقص حتىٰ ساعة متأخرة.

قال «طلبة» لأم السعد:

- الناس بتستني أي فرصة علشان تفرح.
- ربنا يفرح الكل.

****

تعطرت «جمالات» وخلعت منديل رأسها وتركت شعرها الحريري الأسود الفاحم ينسدل خلف ظهرها، لونت شفاهها باللون الأحمر، وارتدت قميصًا من الستان اللامع القصير، بدت كأجمل ما يكون، بلع «طلبة» ريقه وابتسم لها وقال:

- كل يوم بتحلوي عن اللي قبله يا «جمالات».
- أنت اللي عينيك حلوة.

داعب وجهها بأصابعه، ارتعشت شفاهها، مس شعرها وتسللت يده إلىٰ ظهره، احتضنها، شعرت بأنها لا تعيش فوق سطح الأرض، تعلقت بحضنه، قبَّلها، غابت في سمائه، أغمضت عينيها، بدت كعروس في ليلة زفافها، سمىٰ باسم الله.

في صباح اليوم التالي أُعيدت تسوية وتنظيف أرض الحارة، وحضر تاجر الفراشة وبدأ في نصب القماش والشباب يساعدونه في رص الكراسي وعمل مسرح لفرقة العوالم (الراقصات) وتعليق الرايات (علم مصر صغير علىٰ هيئة مثلث من القماش)، تكفلت «أم عطية» بتجهيز العروس، أزالت الشعر الزائد من جسدها باستخدام الحلاوة التي أعدتها من العسل الأسود بعد غليه علىٰ النار ليصير لزجًا يلتصق بالشعر فتسهل إزالته، ثم سوت لها شعر رأسها ونتفت حواجبها، حمتها بالماء والصابون المعطر، وعطرتها بالرائحة التي أحضرها العريس، وضعت لها «مكياج» ولونت شفاهها، وأخذت توصيها وتوعيها بما هي مقدمة عليه وبضرورة التعاون مع عريسها في الدخلة، و«مريم» تخفض رأسها خجلاً وتتلافي النظر في عين «أم عطية»، وتواصل «أم عطية» نصحها:

- إوعي يشم منك ريحة وحشة، حافظي علىٰ نضافتك واتزوقي.

وفي المساء ساعدتها علىٰ ارتداء الفستان الأبيض والطرحة.

في المساء وفي زفة شملت أهالي الحارة ذهبت العروس إلىٰ الكنيسة حيث التقوا بالعريس وضيوفه.

بدأت مراسم الإكليل، وبدأ القسيس (الكاهن) في تلاوته وبدأ بصلاة لشكر الرب:

«أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك علىٰ الأرض».

ردد الشماسة صلاتهم بلحن جميل خاص بالسيدة العذراء (تي شوري)، بدأ القسيس في وضع بخور بالمبخرة ورفعه وفي يده الصليب علىٰ رأس العروسين وأوصاهما ببعضهما، ومنحهما البركة.

بعد انتهاء مراسم الإكليل عاد العريس والعروسة والمعازيم إلىٰ الحارة التي تغير شكلها بفضل أنوار الزينة وبدأت طقوس الاحتفال، وجلس العروسان علىٰ كراسي منجدة بقماش أخضر اللون، وحضرت فرقة العوالم وبدأ الاحتفال والراقصة تتفنن في رقصها علىٰ نغمات فرقتها، ويتبارىٰ المعازيم في الصعود للمسرح وتحية بعضهم ويردد «نوبتجي الفرقة» النقطة التحية، وشوبش يا حبايب.

لم يحضر «عزام» الفرح وتجنب أن يأتي بأي فعل تغضب الحاج «رجب» الذي أرسل وجبات غذائية للمعازيم.

❊❊❊❊

«أم عطية» أرملة، ذكية، قوية الشكيمة، في عامها الخامس والثلاثين، جميلة الملامح، ممشوقة القوام، بيضاء البشرة، تعتبرها النسوة في الحارة كبيرتهم، يثقون في حكمتها وكلمتها عندهم مسموعة يحبها الجميع إلا «عزام» فهو دائم الاحتكاك بها ولولا أنها في حماية «طلبة» و«أم أسعد» لكان طردها من الحارة.

تكافح «أم عطية» لتوفر متطلبات الحياة لأولادها، تنحدر من أصول ريفية بقرية تابعة لمحافظة الغربية، تجيد القراءة والكتابة فقد انتظمت بالمدرسة حتىٰ نهاية المرحلة الابتدائية، أخرجها أبوها من المدرسة لضيق ذات اليد متعللا بأن البنت مصيرها بيت جوزها، أراد أبوها تزويجها لابن عمها، رفضت وصممت أن تتزوج ممن تحبه رغم أن أباها يرفضه، ذهبت إلىٰ من يهواه قلبها:

- أبويا رافض جوازنا عشان يجوزني ابن أخوه، أنا جيت لحد عندك، يلا نروح للمأذون ونتجوز علىٰ سنة الله ورسوله.
- لا يا «فواكه» ما يصحش أنا هاروح لأبوكِ تاني يمكن ربنا يحنن قلبه وما يرضينيش يغضب عليك، ولا الناس تجيب سيرتك بالبطال.

علم أبوها أنه لن يستطيع أن يفرض عليها ابن عمها فهي عنيدة وعندما تقتنع بشيء تفعله، وافق علىٰ زواجها ممن تحبه.

عاشت مع زوجها أجمل أيام عمرها، تنتظره بفرحة عند عودته مساءً من عمله في مصنع للحلوىٰ بطنطا، رزقهم الله بولد وبنتين، سرعان ما كشرت الدنيا عن أنيابها، أصيب زوجها في حادث وبترت قدماه، نزلت للعمل، طمع فيها الكثيرون، مات زوجها وبعده بأيام مات أبوها، فضلت النزوح بأبنائها إلىٰ القاهرة بحثًا عن رزق أوسع وبعيدًا عن ابن عمها الذي عاد يطلبها لتكون زوجة ثانية له.

أكبر أولادها «عطية» تليه ابنتها «حبيبة» والصغيرة «فضيلة» كانت ما زالت رضيعة عندما ساقتها قدماها إلىٰ الحارة، أشاروا عليها بأن تؤجر إحدىٰ الغرف ببيت «عزام» سمكري السيارات، سال لعاب «عزام» عندما رآها، أسكنها بحجرة في بيته وبعد أيام تقدم طالبًا يدها للزواج، رفضته، طردها من البيت وألقىٰ بأثاثها القليل في الحارة.

جلست بجوار الأثاث تبكي، طيبت «أم أسعد» خاطرها، توسطت لدىٰ «هريدي» بائع العرقسوس فأسكنها بحجرة في الطابق العلوي ببيته.

ربطت «أم عطية» علاقة جيرة طيبة بالجميع خاصة أم «مريم» زوجة المقدس «سمعان» وكذا زوجة المعلم «هريدي»، أما علاقتها بـ «أم أسعد» كانت لصيقة فكانا لا يفترقان، لم يعجب «عزام» أن «هريدي» أسكنها بيته فتشاجر معه، وقفت «أم عطية» بمفردها في مواجهة «عزام»، تحدته أن يمسها هي أو أحد من أولادها بسوء، جبن أمامها، أتىٰ «طلبة» وزوجته مسرعين، وتدخلا لفض الاشتباك، قال «عزام»:

- «هريدي» ما اشتراش خاطري وسكنها عنده، والحُرمة بتقف قصادي وتتحداني.
- دي ولية في حالها يا «عزام» بتجري علىٰ عيالها، شيلها من دماغك.
- دي مالهاش راجل يحكمها.

- سيبها في حالها يا «عزام»، الحرمة دي في حمايتي.

يعلم «عزام» مدىٰ قوة «طلبة» وأنه لا محالة منهزم لو حدث بينهما عراك، آثر السلامة متظاهرًا بالعفو عنها من أجل خاطر «طلبة».

أرضعت «أم عطية» أصغر بنات المعلم «سمعان» لمرض أمها، وأصبحت أختًا لبناتها بالرضاعة.

فشلت في إقناع ابنها «عطية» بالانتظام في المدرسة فقد كان دائم الهرب، لكنها حرصت علىٰ أن تعلم بناتها، «حبيبة» تصغر «أسعد» ابن «طلبة» بعامين.

تمتهن «أم عطية» أكثر من مهنة، تبيع الطعمية والعدس والفول النابت، وفي الشتاء تصنع حلوىٰ المفتقة بالسكر أو العسل الأسود حسب الطلب، ويعرفها سكان كل المناطق المجاورة فتحجز لهم المفتقة بالدور، شاركتها زوجة «هريدي» في بناء فرن فلاحي فوق سطح بيتهم يصنعون فيه «الفايش الصعيدي» و«العيش المرحرح» و«الفطير المشلتت» بالطلب، وفي العيد الكبير (الأضحىٰ) تصنع الرقاق، وهي بلانة الحارة وماشطتها، تجهز العروسة وتهيئها وتزينها للعرس، كما تجيد شغل الكروشيه بالإبرة.

رغمًا عنها تسلل «طلبة» إلىٰ قلبها، افتتنت بشهامته ورجولته، كتمت ما تشعر به في قلبها، فالخيانة ليست من طبعها، هي علىٰ يقين أن حبهما سراب، اكتفىٰ كل منهما بزيارة الآخر في أحلامه.

قال «طلبة» لـ «أسعد»:

- بكرا الصبح عندنا حمولة مشمش من قرية «العمار» بالقليوبية، وبالمرة نشتري لنا قفص، مفيش أحسن ولا أحلىٰ من مشمش العمار طعم وريحة وحلاوة.

يكره «أسعد» العمل مع أبيه كتبَّاع علىٰ العربة.

دار حديث بين «أسعد» وأبيه:

- ليه ما فضلتش في البلد بدل مرمطتنا هنا؟

تنهد «طلبة» فقد حرص علىٰ أن يكون سر ما حدث له من تقديم كفنه لتفادي الأخذ بالثأر بعيدًا عن أولاده، رد علىٰ «أسعد»:

- الحمد لله يا «أسعد»، احنا أحسن من غيرنا، الناس في البلد علىٰ قد حالهم، ومالناش أي أملاك في البلد غير بيت صغير مبني بالطوب اللبن (الطيني).
- أحنا ليه ما بنروحش البلد خالص؟
- أكل عيشنا هنا ومالناش حد في البلد.
- مالقيتش شغلانة أحسن من شغلانة السواق دي؟
- يا ابني أنا اشتغلت في حاجات كتير، كنت وارث قيراطين طين في بلدنا كنت بافلِح فيهم وأخرج أشتغل في أرض الغير أُوجَري (بالأجر)، ولما جيت مصر

اشتغلت مناول في طايفة المعمار أشيل قصعة الأسمنت والطوب على كتفي وأطلع بيهم سلالم معمولة من الخشب صعب إنك توزن نفسك عليهم وما كانش الشغل دايم، في الأيام اللي ما كانش فيها شغل كنت باشتغل في أي حاجة عشان أوفر لكم حياة كويسة وأعلمك أنت و«هاني» لحد ما شاركت الحاج «إسماعيل» -الله يرحمه- على عربية نص نقل قديمة وبعدين اشتريتها واشتريت البيت.

- خدنا إيه من العلام؟ أديني عاطل ومربوط زي الحصان في العربية.
- خلي إيمانك بالله كبير وقول الحمد لله، عمومًا أنا كلمت لك الأسطى «عزام» يكلم لك الحاج «رجب» يشغلك عنده في شركة من بتوعه بمؤهلك.

ردد «أسعد» في نفسه:

- وظيفة! موت يا حمار.

سكت الاثنان، سرح «طلبة» بخياله وتذكر طفولته في القرية، اشتم رائحة طين القرية عندما ترويه المياه ورائحة أعواد القطن الجاف وقوالح الذرة كوقود لإشعال الكانون والفرن وملمس المياه المنسابة من طنبور المياه وهو يبلل يده منها، كان لا يخشى البلهارسيا فهي

نادرة الحدوث في الوجه القبلي، تنفس بعمق كأنه يجذب هواء البلد النقي إلىٰ رئتيه.

تبسم وهو يستعيد ذكريات الجلوس في ظل شجرة التوت الكبيرة أمام بيتهم، وضحكاته وهو يجلس مع أقرانه فوق النُورَج يجره فحل جاموس مغمض العينين ويدور في دائرة فوق أعواد القمح ليدرسه ويفصل حبات القمح عن العيدان التي تتهشم فتصبح تبنًا يطعمون به البهائم، انبسطت أسارير وجهه عندما تذكر جلوسه أمام الساقية بجانب حقل الشيخ «مصلح» كبير البلد والوحيد الذي يملك ساقية في أرضه ينتظر مرور «حبيبة» قلبه ابنة عمه جميلة جميلات البلد وهي تحمل بلاص الماء فوق رأسها وتتعمد المرور من أمامه تمنحه ابتسامة عذبة من وجهها الصبوح فيهيم بها حبًا، وكيف حاول شبان البلدة خطبتها ومنهم شبان من أكابر عائلات القرية فرفضتهم جميعًا وقال أبوها البنت لابن عمها، ترحم علىٰ أبيه، تذكره في مولد ولي القرية يلابط (يصارع) الرجال فيصرعهم واحدًا تلو الآخر، ثم يلعب معهم بالعصا (تحطيب) فيهزمهم، اشتم رائحة خبيز أمه وهي جالسة أمام الفرن وتختصه برغيف بندري طري تحشوه بالسمن البلدي والسكر، وعمله مع أبيه بأجر في حقول الغير، ولم يغب عن باله الشيخ «علوان» شيخ

الكُتَّـاب الـذي علمـه القـراءة والكتابـة وحفظـه أربعـة أجـزاء مـن القرآن الكريم وأحاديث نبوية من كتاب البخاري.

ربت «طلبة» بيده علىٰ كتف ابنه، وقال له:

- أنـا انحرمـت مـن التعلـيم، أبويـا -الله يرحمـه- كـان علـىٰ قـد حالـه، علمتـك أنـت وأخـوك، التعلـيم يخلـي حياتـك أحسـن وتبقـىٰ محـترم بـين النـاس، أنـت معـاك دبلـوم تجـارة، وبكـرا تشـتغل بيـه، و«هـاني» منتظـر نتيجـة الإعداديـة، كـان نفسـي أعلـم «زينـب» بـس خفـت عليهـا؛ أقرب مدرسة بعيدة عن الحارة.



بعد يوم عملٍ شاقٍ عاد «طلبة» و«أسعد» بالعربة، وهم أمام مدخل الحارة سمعوا صراخ ونواح للنساء، انقبض قلب «طلبة»، قفز «أسعد» من العربة متسائلا:

- فيه إيه؟
- أخوك «هاني» داسه القطر.

صدمته الإجابة وأخذ يلطم خديه بيده ويصرخ:

- «هاني»، يا «هاني».

نزل «طلبة» من العربة مذهولا، حاول أن يتماسك، خذلته قدماه، بدأ يسقط، تلقته «أم عطية» في حضنها لتمنعه من السقوط، بكىٰ علىٰ صدرها.

«أم أسعد» شقت ثوبها بالطول ولطمت خدها، نثرت التراب فوق رأسها، راحت في إغماءة، سارعت «أم عطية» بسترها وغطتها بملاءة، أفاقها الجيران بوضع بصلة أمام أنفها، بكت «زينب» بشدة، احتضنها أبوها يحتمي بها وهو يبكي.

عمَّ الحزن الحارة، «أم عطية» وأم «مريم» وزوجة «هريدي» لم يتركا «أم أسعد» لحظة واحدة، تم نصب خيمة صغيرة للنساء لتتلقىٰ فيها «أم أسعد» عزاء النسوة ورفضت الاستعانة بمعددة كعادة أهل الحارة المنحدرين من وجه قبلي، واحتسبت «هاني» عند ربه.

في اليوم التالي خرج «طلبة» و«أسعد» لإحضار جثة «هاني» من مشرحة زينهم يصحبهم عدد من رجال الحارة، أحضروه بعربة دفن موتىٰ تابعة للجمعية الخيرية التابعة للحاج «رجب».

أراد «طلبة» أن يسافر ليدفن ابنه في قريتهم قال له الحاج «رجب»:

- الدنيا حر يا «طلبة» وإكرام الميت دفنه، وكلها أرض الله.

رفض «طلبة» أن يتكفل الحاج «رجب» بمصاريف الجنازة وشكره، ووافق علىٰ دفن «هاني» في مقابر تابعة لجمعية الحاج «رجب» الخيرية، ليتجنب السفر للبلد وأن يفتضح سره.

في المساء بدار مناسبات مسجد الحاج «رجب»، اصطف «طلبة» وابنه «أسعد» والأسطىٰ «عزام» وأبو «مريم» و«هريدي»، لتلقي العزاء في وفاة «هاني»، حضر لتقديم واجب العزاء عضو مجلس الشعب عن المنطقة ومعه كوكبة من أتباعه، همس أحد الحاضرين لجاره:

- الراجل دا ما بنشفهوش إلا في المصايب أو قبل الانتخابات.

حضـر أيضًـا رجـل الـبر الحـاج «رجـب» ووقـف واعظًـا في المعزيين:

- الموت حقٌّ علىٰ بني آدم جميعًا، وقد خاطب الله -سبحانه- نبيه الكريم في سورة الزمر فقال: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ»، الدنيا دار امتحان واختبار وابتلاء، وأنّ الخلود والحياة الأبديّة لا تكون إلا في الآخرة حيث يمنّ الله -تعالىٰ- علىٰ المؤمنين فيدخلهم جنّته برحمته وفضله.

«طلبة» راضٍ بقضاء الله، يرد علىٰ المعزيين بقوله «الحمد لله» ويتمني ألا يرىٰ أحدهم مكروهًا في أولاده ويشكر لهم سعيهم، بينما «أسعد» يندب حظه ويتساءل في نفسه عن سبب اختيار الموت لأخيه الأصغر دون الأطفال، وتذكر ضحكاتهم وشقاوتهم معًا، من يومين صنع لـ «هاني» طائرة ورقية من أكياس البلاستيك القديمة وورق الجرائد، علت وجهه ابتسامة خفيفة، عندما تذكر فرحة «هاني» عندما اصطاد بطائرته طائرة أخرىٰ، أفاق «أسعد» من ذكرياته علىٰ كفوف المعزيين تصافحه بعد أن أنهىٰ الشيخ قراءة الربع الأخير.

❋❋❋❋

«أسعد طلبة»، لم يمتلك من السعادة إلا اسمه، الدنيا كلها عنده بلون واحد قاتم، لم يعش طفولته كباقي الأطفال، فقد كان وقته كله في

المدرسة أو في مساعدة أبيه كتبَّاع على العربة، ناقم على الدنيا، حاول والده دفعه للمشاركة في الأنشطة الاجتماعية بالمدرسة، لكن «أسعد» يفضل أن ينفرد بنفسه ويضع دائمًا حواجز بينه وبين الآخرين، لا أصدقاء له ولا يثق بأحد، انفراده بنفسه وسلوكه العدواني تجاه الآخرين جعل زملائه يتنمرون عليه، ورث عن أبيه طوله الفارع وبنيته القوية، ورغم ذلك كان يشعر أنه أضعف من الجميع، فيزداد حقده على ظروفه المعيشية وعلى المجتمع كله، وبموت أخيه «هاني» فقد صديقه الوحيد.

رغم عزلته كان متفوقًا في دراسته، لكن تنمر التلاميذ عليه واحتكاكهم به باستمرار جعله يكره المدرسة، اللحظات الوحيدة التي كان يشعر فيها بأهميته عند إعلان نتيجة الاختبار الشهري و تفوقه، التنمر المستمر عليه جعله كثيرًا ما يشتبك في معارك معهم، في مشاجرة مع زملائه بالمدرسة، في الفسحة بين الحصص تجمعوا عليه وأخذوا يضايقونه ويتهمونه بالجبن، فلما تجنب الرد والاشتباك صفعه أحدهم على وجهه، اهتاج «أسعد» ولكمه فأسال الدم من أنفه وأوقعه أرضًا، جثم فوقه وأخذ يكيل له اللكمات، حاول التلاميذ تخليص زميلهم فاشتبك مع الجميع، تمزقت ملابسه وسالت الدماء من فمه، حاول أن يبرر سبب الشجار أمام ناظر المدرسة باعتداء التلاميذ عليه لكن الجميع شهد ضده.

استُدعي «طلبة»، وقابل ناظر المدرسة، أنّبه علىٰ أنه لم يستطع تربية ابنه، وقال له:

- ابنك محتاج لعلاج نفسي.

وهدد بفصله نهائيًا إذا تكرر هذا الموقف منه.

لم تتغير علاقة «أسعد» بزملائه في المرحلة الإعدادية، فهم نفس رفقائه في المدرسة الابتدائية.

لاحظ «أسعد» تجمع بعض التلاميذ حول فتاة ترتدي زي المدرسة للمرحلة الإعدادية، حاول أحدهم خطف شنطة كتبها، تمسكت بها، صاحت تطلب النجدة بينما أحدهم يحاول فك الوشاح الذي تلف رأسها به، غلا الدم في رأس «أسعد» للمرة الأولىٰ في حياته يشعر أنه يجب أن يقف بجوار أحد علاوة علىٰ أنه يكره هؤلاء التلاميذ، اتجه نحوهم وطالبهم بتركها في حالها، رد أحدهم:

- مش ناقص إلا أنت يا أبو طويلة يا شيال!

أعقب قوله ضحك باقي التلاميذ.

لم يشعر «أسعد» بنفسه إلا بعد أن قام المارة بالفصل بينه وبين المعتدين بعد أن أوسعهم «أسعد» ضربًا.

نظر «أسعد» إلىٰ الفتاة وطلب منها تجفيف دموعها ثم سألها عن مدرستها، ورافقها لباقي الطريق حتىٰ لا يتعرض لها التلاميذ مرة أخرىٰ.

وصل خبر المشاجرة بين «أسعد» والأولاد إلىٰ تلاميذ المدرسة، التف بعضهم حول «أسعد»، شعور غريب لم يعتد عليه، بالقوة يتملكه ويسيطر عليه.

في بيته سيطرت صورة الفتاة علىٰ عقله، كان يود لو استطاع مد يده ليجفف دموعها التي انسابت علىٰ خديها، أخذ يتذكر جمال صوتها وهي تستغيث به، ولون بشرتها البيضاء المشربة بالحمرة وعينيها العسليتين وكأنها وردة جميلة، وعندما اطمأنت وابتسمت ضحكت له الدنيا.

في اليوم التالي كان واقفًا أمام باب مدرستها، شاهدته والتقت أعينهما، سارعت بالدخول حتىٰ لا يلاحظ أحد.

لم يظن «أسعد» أن قلبه الصغير المغلق أمام كل البشر يمكن أن يتطرق إليه الحب، خاصة هذا الحب الطفولي الجميل، بدا مظهره يتغير، يهتم بنظافته وملبسه ويحرص علىٰ تمشيط شعره، كانت «جمالات» سعيدة بما طرأ علىٰ ابنها من تغيير.

تكرر وقوف «أسعد» أما مدرسة البنات أحيانا في الصباح، وأحيانًا عند الانصراف، كانت تحرص علىٰ أن تتلاقىٰ أعينهما، غاب «أسعد» يومين عن الانتظار أمام باب المدرسة، أصابها القلق، تعمدت التلكؤ أمام باب المدرسة لكنه لم يحضر.

في اليوم الثالث حضر «أسعد» عند انصراف المدرسة، تهللت أساريرها، لاحظت شحوب وجهه، سارت عكس الطريق التي تسير فيها المؤدية إلىٰ منزلها، تبعها حتىٰ ابتعدت عن المدرسة واطمأنت إلىٰ عدم وجود أحد يعرفها، توقفت فألقىٰ عليها السلام، مد يده الباردة إليها، شعر بسخونة يدها، قال لها:

- اسمي «أسعد طلبة».
- اسمي «خديجة رجب».
- كنت فين؟
- كنت تعبان شوية.

علم «أسعد» أنها ابنة الحاج «رجب» رجل الخير المعروف الذي بني مسجدًا قريبًا من الحارة، لم يُخْفِ عليها أنه ابن «طلبة» السائق علىٰ عربة، ربط الحب بين قلبيهما، سألته عن سبب حزنه الظاهر، قص عليها ما حدث لأخيه «هاني»، حزنت لحزنه، حاولت إخراجه من أحزانه لكنه كان قد أغلق نفسه عليها.

حاولت أكثر من مرة إعطاءه بعض قطع الشكولاتة ورفض بشدة، فهو رجل ولا يصح أن يأخذ شيئًا من فتاة، وفي اليوم التالي ابتاع من مصروفه بعض قطع اللبان وأهداها لها، قبلتها ضاحكة، تبادلا عبارات الحب من خلال قصاصات الورق، كانت تحرص علىٰ تمزيقها قبل دخولها المنزل، أما هو فقد كان يحتفظ بها.

ظهرت نتيجة المرحلة الإعدادية وحصل «أسعد» علىٰ مجموع يدخله الثانوية العامة، إلا إن أباه فضل اختصار الطريق وإدخال «أسعد» الثانوي التجاري، حزن «أسعد» وكان يتمنىٰ أن يلتحق بالثانوي العام ليدخل الكلية الحربية ويحقق حلمه الذي حلمه مع «خديجة»، فقد وعدها أن يصبح ضابطًا ليليق بها.

منذ اليوم الأول من الإجازة السنوية للمدارس انقطعت أخبار «خديجة»، كان يعلم أن منزلهم قريب من المسجد الذي بناه والدها، فكان يذهب للصلاة في المسجد عله يصادفها، علم أن الحاج «رجب» والد «خديجة» خصص العمارة التي يسكنون بها لأعمال الخير وانتقل للسكن في منطقة بعيدة، أيقن أن قد لا يراها مرة أخرىٰ، حرص علىٰ قراءة خطاباتها يوميًا، يتخيل أنه يحادثها ويسأل نفسه عن حالها.

في مرحلة المدرسة الثانوي التجاري تغير مسلك «أسعد» كون لنفسه شلة من التلاميذ أصبح زعيمهم، وأصبح يفرض إرادته وسيطرته علىٰ باقي التلاميذ.

تمر الأيام رتيبة ثقيلة علىٰ نفس «أسعد»، هو في حداد دائم منذ وفاة أخيه «هاني»، وعمق غياب «خديجة» شعور بالوحدة والحزن.

❋❋❋❋

يعم الظلام الحارة إلا من ضوء مصباح أمام منزل «طلبة» حيث يعقد المجلس اليومي للرجال أمام المنزل يتسامرون ويحتسون

أكواب الشاي ويدخنون الجوزة بالمعسل، الجو داخل المنازل لا يطاق من شدة الحر وأهل الحارة لا يمتلكون رفاهية المراوح، يفترش الرجال الأرض أمام بيوتهم وينامون في الخلاء لينعموا بنسمة هواء.

يحرص بعض أهالي الحارة علىٰ حضور دروس الحاج «رجب» في مسجده بعد صلاة المغرب، منهم «طلبة» كلما سنحت له الظروف، أما «عزام» سمكري السيارات فيحرص علىٰ حضور الدرس بصفة منتظمة يوميًّا ففي جوار الحاج «رجب» الكثير من المكاسب.

ذهب الحاج «رجب» بإحدىٰ سيارته لإصلاح عيب بسيط برفرفها، تجاذب الحديث مع «عزام» السمكري، حلل شخصيته وأنه شخص وصولي يعشق المظهرية والزعامة، عرف أنه رجله الذي يرد أن يستخدمه، أجزل له العطاء ودعاه لحضور درسه والصلاة في المسجد الخاص بالجمعية الخيرية التي أسسها، بعد اللقاء أصبح «عزام» عجينة في يد الحاج «رجب»، يغدق عليه المال ويكلفه فينفذ، وبدأ «عزام» يتظاهر بالتدين ويواظب علىٰ الصلاة، إلا أن أخلاقه وتعاملاته مع الناس لم تتغير.

«عزام» هو من يقوم باستلام صدقات وعطايا الحاج «رجب» ليوزعها علىٰ أهل الحارة، وبما أنه من العاملين عليها يحرص علىٰ أن يقتطع منها نصيبًا كبيرًا، ويتغاضىٰ الحاج «رجب» عن ذلك.

****

بعد صلاة العشاء جلس «طلبة» مع «هريدي» و«أبو مريم» يتسامرون، ألقىٰ عليهم «عزام» السلام بعد حضوره درس الحاج «رجب»:

- علىٰ المؤمنين السلام.
- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فور انضمام «عزام» استأذن «سمعان» وانصرف.

نظر «طلبة» إلىٰ «عزام» معاتبًا:

- لما بيكون «سمعان» مش معانا تقول «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وفي وجود «سمعان» تقول «علىٰ المؤمنين السلام»، «سمعان» عارف إنك تقصد إنه مش من المؤمنين.
- وهو أنا باقول حاجة غلط؟

سكت «طلبة» ولم يسترسل في الحديث فهو يعلم أن حديثه مع «عزام» لن يأتي بفائدة.

أشعل «هريدي» ركوة نار وضع فوقها إبريق الشاي، وبدأ في تكريس (تعمير) حجارة الجوزة بالمعسل، أخذ نفسًا طويلًا من الجوزة حتىٰ اشتعل المعسل فوق الفحم، كتم النفس ثم أخرجه من فمه وأنفه، سعل وقال:

- مساء الفل.

تناول «طلبة» الجوزة وشد نفسًا عميقًا، ثم مررها إلىٰ «عزام» الذي بدأ يمرر علىٰ الآخرين، دارت بينهم أكواب الشاي الثقيل، ألقىٰ عليهم السلام الأسطىٰ «علي» النقاش وهو ذاهب إلىٰ حجرته المستأجرة فوق سطح بيت «عزام»، ناداه «عزام»:

- النهاردا تلاتة منه وماشفتش منك أبيض ولا أسود.
- ما أقدرش علىٰ زعلك يا معلم «عزام»، أربعة جنيه أهُم وبكرة بمشيئة الرحمن أجيب لك الجنيه اللي فاضل.
- من الشهر الجاي إيجار المطرح زاد جنيه، ولو مش عاجبك ورينا عرض كتافك وشوف لك متوىٰ تانية.

ضحك الأسطىٰ «علي» وانصرف.

نظر «عزام» إلىٰ جلسائه وقال:

- مش قادر يدفع إيجار المطرح وشاطر بس يتقمع ويجيب كل يوم جرنان.

رد «طلبة»:

- الراجل في حاله بيرجع من شغله يقفل عليه بابه.

رد «عزام»:

- اللي ما بشوفه يدخل الجامع، دا مسلم بالاسم بس.

«طلبة»:

- يا شيخ «عزام» ما تحكمش عليه بالظاهر، الراجل ما شفناش منه حاجة وحشة.

«عزام»:

- هو كل من نطق بالشهادة بقىٰ مسلم!

«طلبة»:

- «ولا تقولوا لمن ألقىٰ إليكم السلام لست مؤمنًا» صدق الله العظيم.

«هريدي»:

- ما لنا وما له يا «عزام»! وعلىٰ رأي المثل «صباح الخير يا جاري أنت في دارك وأنا في داري».

تمر «أم عطية» تحمل فوق رأسها صينية بها برطمانات الحلاوة المفتقة لتوزيعها علىٰ الزبائن خارج الحارة.

«عزام»:

- الولية دي رايحة فين والدنيا ليل، صحيح مالهاش راجل يلمها.

سمعته «أم عطية»، وضعت الصينية علىٰ الأرض وخلعت فردة شبشبها وتوجهت صوب «عزام» تريد أن تضربه علىٰ رأسه.

أمسك «طلبة» يدها وقال لها:

- عيب يا «أم عطية».
- مش سامع الراجل الناقص قال إيه يا معلم «طلبة».
- وأنا قلت حاجة غلط، مرة صحيح ما تستحيش.

- يا راجل يا ناقص، حاطتني ليه في دماغك.

تخرج أم السعد وتسحب «أم عطية» من يدها بعيدًا عن «عزام».

«طلبة» يعلم أن «عزام» شخصية عصبية متسلطة، يتمسك برأيه حتىٰ لو كان علىٰ غير حق، غير مرن في التعامل مع الناس ولا يحترم إنسانيتهم، يرىٰ الدنيا من منظوره هو فقط لأنه الوحيد علىٰ حق، يشك في الجميع، يطوع ضميره بما يلائم مصلحته الشخصية، ينغص عليه حياته ويشعره بالمهانة رفض «أم عطية» الاقتران به وفشله في طردها خارج الحارة.

قام «عزام» مغادر الجلسة، التفت إلىٰ «طلبة»:

- كلمت الحاج «رجب» يشوف شغلانة للواد «أسعد» عنده.
- ربنا يكرمك يا «عزام»، «أسعد» حظه قليل، أنا خايف لأحسن تتلم عليه العيال البايظة.

قطع حديثهم صوت نفير سيارة الشرطة التي دخلت المنطقة، هبط من العربة «محسن» باشا معاون المباحث ومعه اثنان من أمناء الشرطة بالملابس المدنية وجنديا أمن مركزي.

توجه «محسن» باشا صوب الجالسين فهبوا واقفين مؤدين له التحية.

قال «عزام»:

- مرحب سعادة الباشا.

لم يرد عليهم التحية، مد يده وتناول الجوزة التي كانوا يدخنونها، اشتمها للتأكد من عدم وجود مخدرات ثم ألقاها أرضًا، نظر إلىٰ «عزام» وقال له:

- عربيتي الملاكي فيها خبطة في الشنطة.

«عزام»:

- تؤمرني يا باشا، الصبح آجي أخدها وأعمل اللازم.

انتشر مرافقو «محسن» باشا في الحارة وعادوا ممسكين بشاب متهم بسرقة محتويات القطارات، أركبوه سيارة الشرطة بعد أن صفعه «محسن» باشا وركله بقدمه، سأل «محسن» باشا «عزام»:

- «علي فؤاد» النقاش ساكن فين؟
- ساكن في بيتي يا باشا، لسه داخل من شوية.

أمر الضابط أحد مرافقيه بإحضار «علي فؤاد» وتفتيش حجرته.

أحضر أمين الشرطة علىٰ فؤاد يرتدي بيجامة نظيفة.

- فتشت أوضته يا باشا، نظيفة مافيهاش غير شوية كتب.

تعمد «محسن» باشا تفتيش «علي» بطريقة مهينة، نظر في بطاقته الشخصية وقال:

- دا أنت متعلم يا «علي»، معاك ثانوية عامة.
- أنا منتسب في كلية الحقوق يا باشا في السنة النهائية.
- لم نفسك أحسن ليك تقارير وحشة.

رحلوا بالعربة بينما تعالت أصوات النسوة أقارب الشاب بالصياح والدعاء عليهم.

وقف «عزام» متباهيًا، طمأن الأهالي وقال بصوته الجهوري:

- الصباح رباح، بكرا أروح أجيب عربية «محسن» بيه وأرجع بالواد اللي خدوه لو بريء.

مر «طلبة» علىٰ «سمعان» يطيب خاطره:

- ما تزعلش يا «سمعان» أنت عارف «عزام» فكره معوج.
- والله يا «طلبة» التطرف والعنف في كل الديانات، اللي مش فاهمين بيولعوا النار بين الناس الغلابة، احنا عايشين مع بعض لقمتنا واحدة وفرحنا وحزننا واحد، إوعىٰ تفتكر يا «طلبة» إن «عزام» عندكم أنتم بس، احنا عندنا كتير زي «عزام»، صحيح يا «طلبة» قبل ما أنسىٰ بكرا مسافر أزور أخويا في البلد هيطاهر ابنه خلي بالك من الولاد ووصي «أم أسعد» تبقىٰ تشق علىٰ أم «مريم» أنت عارف إنها تعبانة.
- علىٰ البركة، أنتم بطاهروا ولادكم يا «سمعان»؟
- أيوا يا «طلبة» في البلد بنطاهر ولادنا، أنا طاهرت «إبراهيم» ابني، بافكرك بعد شهر مولد مار «جرجس» بأرمنت هاتيجي معايا زي كل سنة.
- بمشيئة الله أسافر معاك للمولد وبالمرة نكمل سفر ونزور سيدي «أبو الحجاج» في الأقصر وأوفي الندر اللي عليا.

لم يعد «أسعد» يرىٰ «خديجة»، ولكنها لا تغيب عن باله أو عن أحلامه، تعطله دون عمل زاد كرهه للجميع.

تقرب «أسعد» إلىٰ «علي فؤاد» النقاش جارهم في الحارة وأعجب به، فهو دائمًا نظيف الثياب حليق الذقن، زاره في حجرته دار بينهما حديث:

- ماحدش يجي في باله إنك نقاش يا أسطىٰ «علي»، ايدك ما فيهاش آثار بوهية وهدومك دايمًا مافيهاش ولا بقعة.
- يا «أسعد» هدوم الشغل تتلبس للشغل بس، والنظافة من الإيمان، وبعدين أنت ترفع بينا التكليف وتناديني بعلي من غير أسطىٰ.

ربطت الصداقة بين «أسعد» و«علي»، حجرة «علي» أثاثها بسيط عبارة عن سرير ودولاب صغير ضلفتان ومراية برف عليها فرشة ومشط وعبوة فازلين وزجاجة كلونيا لافندر، ومنضدة مرصوص عليها بعناية كمًّا كبيرًا من الكتب، يتصدرها مصحف بحجم كبير وسجادة صلاة.

- أنت بتصلي.
- الحمد لله.
- الأسطىٰ «عزام» بيقول عليك شيعي.
- تقصد شيوعي.

- هو فيه فرق بينهم؟

ضحك «علي»:

- شيعي يعني مسلم يتبع المذهب الشيعي وموجودين في العراق وإيران ولبنان بشكل أساسي، أما شيوعي يعني منتمي لفكر سياسي اجتماعي، «عزام» بيكفر الشيعة مع إنهم مسلمين بس مختلفين معانا احنا أهل السنة في بعض الأمور، وعلىٰ فكرة يا «أسعد» أنا مش شيوعي أنا مصري اشتراكي.
- هو فيه فرق بين الشيوعية والاشتراكية؟
- أيوا، الشيوعية الدولة بتملك كل حاجة، أما الاشتراكية ففيها ملكية جماعية تتبع الدولة زي شركات القطاع العام وملكية خاصة للأفراد، الاثنين يتفقوا في التوزيع العادل للثروة، وإلغاء الفوارق بين الطبقات.
- واحنا بلدنا يا أسطىٰ اشتراكية ولا شيوعية؟
- احنا راقصين علىٰ السلم لا اشتراكية ولا شيوعية ولا رأس مالية.
- أنت قريت كل الكتب دي؟
- قريتهم يا «أسعد» وأكتر منهم بكتير، القراءة مفيدة، زي الأكل والشرب، بتعرفنا علىٰ ثقافة العالم كله.

أخذ «أسعد» يقلب في الكتب و«علي» ينظر إليه مبتسمًا، لاحظ «أسعد» أن عناوين

الكتب «الاشتراكية لسلامة موسىٰ، الناحية الاجتماعية والسياسية في فلسفة ابن سينا لـ«محمد يوسف موسي، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية لجوزيف شومبيتر، النبي الأعزل لتروتسكي» وكتب أخرىٰ عن «كارل ماركس» و«أنجلز» و«لينن»، وعن الثورة وتأسيس الاتحاد السوفيتي.

- لو عاجبك أي كتاب يا «أسعد» ممكن تستعيره تقرأه وترجعه.
- مافيش قصص؟
- للأسف يا «أسعد» مافيش قصص.

تطرق الحديث إلىٰ ذكر الحاج «رجب» قال «أسعد»:

- الحاج «رجب» بتاع ربنا بيعمل خير.

تبسم «علي»، نظر في عين «أسعد» وقال:

- ما تتغرش بالمظاهر يا «أسعد» الحاج «رجب» بيتاجر بأحلام الناس وقضاياهم، يستغل الفراغ الروحي فيملأه بكلمات حق يراد بها باطل.

بدأ «أسعد» يرافق «علي فؤاد» في زيارته إلىٰ حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، يعقدون ورشة لتبادل الآراء ومناقشة الأعمال الأدبية، وكثيرًا ما يحاضر أحد كبار الحزب الموجودين، لاحظ «أسعد» أنهم ينادون الأسطىٰ «علي» بالأستاذ، سمع منهم عن

حماية المواطنين من الاستغلال، وعن الديموقراطية وتداول السلطة بشكل سلمي، والتضامن بين الشعوب العربية، والكفاح ضد كل أشكال التبعية للإمبريالية الغربية.

عاملوا «أسعد» باحترام فمال «أسعد» إلىٰ فكرهم.

في إحدىٰ الزيارات لمبني الحزب رأىٰ «أسعد» بعض الزوار للحزب من الملتحين، علىٰ رأسهم الحاج «رجب»، وتعالت ضحكاتهم عند استقبال المسئولين بالحزب لهم مما يدل علىٰ وجود علاقة قديمة بينهم، سأل «أسعد» «علي»:

- بيعملوا إيه هنا؟
- زيارة لرئيس الحزب.
- بس دول بيتهموا أعضاء الحزب بأنهم شيوعين كفرة.
- ما تاخدش في بالك، الدنيا كلها مصالح يا «أسعد».

❊❊❊❊

لم تفارق «خديجة» أحل«أم أسعد».



صدرت الجرائد المصرية في منتصف شهر يناير ١٩٧٧ تتصدرها أنباء عن إجراءات ترشيد الأسعار وإلغاء الدعم عن بعض السلع الأساسية، ترقب الناس في كل أنحاء مصر بقلق الأخبار، لم يختلف الوضع في حارة «الشماشرجي» عن باقي شوارع مصر.

في المساء أمام منزل «طلبة» جلس «طلبة» ومعه «هريدي» و«سمعان» وانضم إليهم «أسعد»، تحدثوا عن أنباء ارتفاع الأسعار، ألقىٰ عليهم «علي فؤاد» تحية المساء، دعوه للجلوس، اطمأن «علي» لعدم وجود «عزام» بينهم فجلس، قال له «أسعد»:

- نورنا يا «علي»، الكلام داير إن الأسعار هتولع.
- صحيح، كل السلع الأساسية سعرها هيرتفع.

«هريدي»:

- زي إيه يعني يا سي «علي»؟
- البنزين والسكر والشاي والزيت وحتىٰ السجاير، وزير المالية «عبد المنعم القيسوني» قدم ميزانية الحكومة النهاردا لمجلس الشعب، طلب في الميزانية بعض الإجراءات التقشفية

لتخفيض العجز، وطالب بتدبير الموارد المالية الإضافية اللازمة وبالاتفاق مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي لتدبير موارد مالية إضافية.

ثم أخذ «علي» يبسط لهم شرحه ويوضح لهم أن صندوق النقد الدولي والبنك الدولي دائمًا لهم شروط مجحفة.

قال «طلبة»:

- سمعت إن كل أعضاء مجلس الشعب وافقوا علىٰ طلب الوزير.
- لم يعترض أحد فقد أشار إليهم «سيد مرعي» رئيس المجلس بيده للموافقة فوافقوا.

تجمع حولهم الكثير من أهل الحارة، الكل شارك بالشكوىٰ من سوء الأحوال المعيشية.

«علي فؤاد»:

- الأكابر مش مضرورين، حتىٰ لو الأسعار ارتفعت، معاهم الفلوس غير كدا كل متطلباتهم تصلهم في بيوتهم.

«أسعد»:

- ساكنين في القصور وسيبينا ساكنين القبور!

كان قد سمع هذه الجملة تتردد في حزب التجمع عندما رافق «علي فؤاد»، شعر «أسعد» بأنه قد جذب انتباه الحضور، أكمل «أسعد»:

- حجتهم إن الزيادة في الأسعار عشان يخفضوا العجز.

رد «علي فؤاد»:

- دي مطالب صندوق النقد الدولي.

«أسعد»:

- دا صندوق نكد دولي.

ضحك الحاضرون.

صباح اليوم التالي الثامن عشر من شهر يناير ١٩٧٧ توجه «أسعد» و«أم عطية» إلىٰ منطقة العتبة لشراء بعض المستلزمات، الأحاديث في أتوبيس النقل العام تدور حول ارتفاع الأسعار وتردد أنباء عن مظاهرات وإضرابات لعمال مصانع حلوان، اقترب الأتوبيس من منطقة باب الشعرية، الطريق متوقف، أشار البعض للسائق بالرجوع فالمظاهرات تسد الطريق، ترجل «أسعد» و«أم عطية» قررا السير حتىٰ ميدان العتبة لشراء ما خرجوا من أجله.

بمجرد دخولهم شارع الجيش المؤدي إلىٰ ميدان العتبة فوجئوا بمظاهرات آتية من منطقة العتبة، أرادا التراجع، سدت عليهم الطريق مظاهرات طلبة جامعة عين شمس آتية من جهة العباسية وعبرت ميدان باب الشعرية تطاردهم الشرطة، اختلط أعضاء المظاهرتان وساد الزحام والضجيج، افترق «أسعد» عن «أم عطية»، وفشل في العثور عليها.

لاحظ «أسعد» أن البعض ممن يعتلون أكتاف المتظاهرين وجوههم مألوفة لديه، يرددون شعارات سبق له أن سمعها عند مرافقته لـ «علي فؤاد» في حزب التجمع منها «يا حاكمنا في عابدين.. فين الحق وفين الدين؟ هو بيلبس آخر موضة واحنا العشرة ساكنين أوضة، سيد مرعىٰ يا سيد بيه كيلو اللحمة بقىٰ بجنيه».

التفت «أسعد» ناحية صوت يعرفه وجد «علي فؤاد» محمولًا فوق الأكتاف يهتف بقوة والجميع يردد ما يقوله:

«يا ساكنين القصور الفقرا عايشين في القبور، عبد الناصر ياما قال خللوا بالكم م العمال».

الهتاف ألهب حماس «أسعد»، انخرط في المظاهرة، أخذ يهتف بكل ما أوتي من قوة حتىٰ إنهم رفعوه علىٰ أكتافهم، ملأه شعور بالزهو والأهمية، صوت أنثوي محمول علىٰ الأكتاف، بجواره التفت إليهم، «أم عطية» فوق الأعناق تهتف والكل يردد ما تقوله.

حدث تدافع بين المتظاهرين نتيجة لملاحقتهم من قوات الشرطة وإلقاء القنابل المسيلة للدموع، سقط «أسعد» وداسته الأقدام امتدت له يد «أم عطية» أوقفته، سرت إشاعة بين المتظاهرين عن سقوط بعض طلبة جامعة عين شمس قتلىٰ برصاص الشرطة، بدأ اسم رئيس الوزراء «ممدوح سالم» يتردد في الهتاف «يا ممدوح يا ممدوح حق الطلبة مش هيروح، بالطول بالعرض حنجيب ممدوح الأرض»،

تاه مرة ثانية عن «أم عطية»، هرب من مطاردة رجال الشرطة للشوارع الجانبية، وصل إلىٰ ميدان رمسيس، شارك من يعتلون كوبري المشاة في إلقاء الحجارة علىٰ السيارات المارة، وأخيرًا وصل العزبة منهك القوىٰ بالكاد تحمله قدماه، استقبلته أمه بفرح فقد كاد القلق عليه أن يقتلها، أنّبه أبوه وقال له:

- أنت اتجننت يا «أسعد»؟ ليه تعرض نفسك وتعرضنا معاك للخطر، ما بيروحش في الرجلين إلا الغلابة واحنا غلابة، مشيك ورا «علي فؤاد» هيجلب علينا المصايب.

علم «أسعد» أن «أم عطية» سبقته بالعودة وقصت ما حدث بالمظاهرات لأبيه وأمه.

في اليوم التالي عرف «أسعد» أن «علي فؤاد» لم يعد إلىٰ مطرحه (حجرته) وأن المظاهرات عمت مصر كلها.

صدرت الصحف ونشرات الأخبار وعناوينها تحمل أخبار «مؤامرة علىٰ نظام الحكم وأنه تم القبض علىٰ القوىٰ المحركة لهذه الأحداث من العناصر الشيوعية والناصرية». لم تتوقف المظاهرات في اليوم التالي بل زادت بشكل أكثر عنفا وضراوة، وقام بعض المتظاهرين بالهجوم علىٰ أقسام الشرطة والملاهي الليلية بشارع الهرم والفنادق الكبرىٰ، لم يخرج «أسعد» في هذا اليوم فقد كان شديد التعب منهك القوىٰ.

في المساء عمَّ الفرح العزبة فقد استمعوا من الراديو إلىٰ خبر إلغاء زيادة الأسعار، تباهىٰ «أسعد» بين أقرانه بمشاركته في المظاهرات التي أجبرت الحكومة علىٰ التراجع، وأحزنه وصف «السادات» للانتفاضة بـ «انتفاضة الحرامية».

عاد «علي فؤاد» بعد شهرين، تغير شكله، أصبح نحيفًا جدًّا، زاره «أسعد» وعلم أنه كان معتقلًا، صحب «أسعد» الأسطىٰ «علي» إلىٰ جلسة في «حوش آدم» جمعت «أحمد فؤاد نجم» (الفاجومي) و«الشيخ إمام» ومعهم كوكبة من الشباب، وأخذ «الشيخ إمام» يدندن بعوده ويغني كلمات نجم:

«الليل الليل الليل
وعجين الفلاحة بالحيل
والويل الويل الويل
لو هزيت الديل
لو قلت بديلي لأ
أندق
بعصايه فوق جسمي
او علىٰ راسي بالرق
وسلام للسيد
وسلام للست
وأدورع السامر

واختار لي بنت
والوبل الويل الويل الويل
لو هزيت الذيل
أندق.. أندق».

حفظ «أسعد» الأغنية.

بعد شهر حضر «محسن» باشا ومعه بعض رجال الشرطة يرتدون الزي المدني واصطحبوا «علي فؤاد» ولم يشاهده «أسعد» مرة أخرىٰ.

توضأ «طلبة» ونادىٰ علىٰ «أسعد» ليخرجا لصلاة الجمعة، تقابلا علىٰ باب الحارة بـ«عزام»:

- علىٰ فين يا «طلبة»
- رايحين نصلي الجمعة.
- هتصلوا فين؟
- هنصلي في السيدة نفيسة.
- ما تيجوا معايا مسجد الجمعية الخيرية قريب، والنهاردا جاي يخطب شيخ من أكابر مشايخ الجمعية.

كلها بيوت الله يا «عزام» واحنا بنتبارك بأهل البيت.

قال «أسعد» لأبيه:

- أنا ملاحظ إنك قليل قوي لما بتروح مسجد الجمعية.
- الشيوخ في الجمعية متشددين واحنا ديننا مافيهوش تشدد.

في مسجد السيدة نفيسة، جلس «أسعد» بجوار أبيه، شعر «أسعد» بالسكينة، فالمسجد متسع والناس معظمهم يأتون حاملين حقائب وأكياس يضعونها بجوار النوافذ ذات الزجاج المعشق الجميل، تكلم إمام المسجد في خطبته عن الوسطية في الإسلام وقال:

«جاءت رسالة الإسلام خاتمة للرسالات السماوية التي سبقتها، حوت الخصائص والمميزات التي امتازت بها تلك الرسالات، فكانت رسالة للناس كافة دون تمييز بينهم، وقد اصطفىٰ الله لخير الأديان وأكملها خير الأمم وأكملها علىٰ تفاوت في خيرية أفرادها وقال -سبحانه وتعالىٰ- في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وجاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالتحذير من سلوك الضالين والمغضوب عليهم، وسبيل المبتدعين المغالين في دين الله غير الحق، قال -تعالىٰ- آمرا رسوله -ﷺ- وأمته من بعده في سورة هود: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فالله -سبحانه وتعالىٰ- يأمر بالاستقامة التي هي الاعتدال، وينهىٰ عن الطغيان، الله تعالىٰ يريد منا الاستقامة دون غلو ولا مبالغة ولا تشديد يحيل هذا الدين من يسر إلىٰ عسر، وهي الوسطية التي جاء بها الإسلام بين الغلو والتفريط».

بعد الصلاة بدأت طقوس الحضرة بتوزيع ما أحضره المصلين داخل الحقائب والأكياس، احتفظ «طلبة» ببعض حبات التمر وقال لـ «أسعد»:

- دول مبروكين ببركة السيدة نفيسة تمرة لأمك والتانية لـ «زينب» أختك.

وقد احتفظ بواحدة لـ «أم عطية»، عمت رائحة القرفة المكان، دارت بينهم أكواب صغيرة من القرفة، ثم قام الشباب بتوزيع «سورة ياسين» علىٰ المصليين وبدأ الجميع القراءة بصوت مسموع، تمنىٰ «أسعد» أن يظل في هذه الحالة الجميلة من السمو الروحي، ثم دخلوا إلىٰ مقام «السيدة نفيسة» حيث تواجد الرجال بنصف المقام الأيمن والنساء بالنصف الأيسر، ثم بدأ أحد العارفين بالله بصوت شجي جميل، واندمج الحاضرون في التأمين والدعاء وتعالت أصواتهم بالبكاء، ثم أنفرد كلً منهما بالدعاء لله بما يحتاجه، وشملت دعوىٰ «أسعد» أن يلتقي بحبيبته «خديجة».

بعد الحضرة ووسط حالة النشوة التي اجتاحت «أسعد» وأباه حرصا أن يستمعا إلىٰ الدرس من إمام المسجد، وكان الدرس عن الوسطية في الإسلام، قال الشيخ:

«تضمن القرآن الكريم منهجًا كاملًا وشافيًا في الوسطية، وتوضيح هذا المنهج من الأمور الضرورية والملحة، خاصة في

الظروف الراهنة التي بلغت خطورة بالغة طالت الأمة الإسلامية والعالم بأسره، بسبب بعد بعض الناس عن المنهج القويم للقرآن الكريم والتأثر بالأفكار المنحرفة والهدامة، والسير وراء كل ناعق، فأفرز ذلك خروجًا عن طاعة ولي الأمر، وسعيا في الأرض فسادًا وقتل النفس المعصومة، وغير ذلك من التبعات المخالفة لمنهج الوسطية منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقال رسول الله -ﷺ- في حديث شريف رواه النسائي: «يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»، وقال -سبحانه وتعالىٰ- في سورة النحل: «ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»، وقال لنبيه في سورة آل عمران: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل علىٰ الله إن الله يحب المتوكلين».

سأل «أسعد» الشيخ:

- ممكن تشرح لنا معنىٰ التطرف في الدين.
- ببساطة التطرف هو مجاوزة الحد والوقوف في طرف الشيء والخروج عن الوسط والاعتدال فيه، فالغالي في الدين متطرف والجافي عنه متطرف.

لـم يـنس «أسـعد» «خديجـة»، كانـت أحلـىٰ أحلامـه، لا فـروق اجتماعية في الحلم، الحلم ملكه ومجانًا، أحزنه أنه لم يعد يراها، وكان يـتلمس أخبارهـا بسـؤال الأسـطىٰ «عـزام» عـن أخبـار أبيهـا الحـاج «رجب»، لعله يطمئن عليها.

عربـة سـوداء فارهـة تقـف أمـام الحـارة، يسـأل السـائق عـن بيـت المعلـم «طلبـة»، ينـادي السـائق علـىٰ الحـاج «طلبـة»، يخـرج «أسـعد» يستطلع الأمر:

- السلام عليكم.
- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- الحاج «طلبة» موجود؟
- نقول له مين عاوزه.
- «سميحة هانم فؤاد» عايزاه.

نظر «أسعد» إلىٰ الجالسة بالعربة وعرفها.

- مش دي الممثلة سميحة فؤاد؟
- أيوا.

قام «طلبة» لاستقبالها:

- أهلًا يا هانم نورتينا.

نزلت سـميحة ترتـدي رداءً أسـود وتغطـي شـعرها بوشـاح أسـود وترتدي نظارة كبيرة الحجم زجاجهـا داكـن، دعاهـا «طلبـة» للجلـوس

فجلست علىٰ أريكة بصالة المنزل، حضرت «أم أسعد» مسرعة ورحبت بالضيفة.

أنا أخت «علي فؤاد».

ألجمت المفاجأة «أسعد»، قال:

الأسطىٰ «علي» المبيض!

أيوا أنا أخته.

تمالك «طلبة» نفسه وقال لها:

- يا هانم من يوم معاون المباحث ما قبض علىٰ الأسطىٰ «علي» ما شفنهوش تاني، وأخباره انقطعت.

نزلت الدموع من عين «سميحة»، خلعت نظارتها، بدا لحزن الشديد علىٰ قسمات وجهها، مسحت دموعها وقالت:

- «علي» مات يا حاج «طلبة»، تعب ونقلوه مستشفىٰ المعتقل، زاد التعب عليه أدىٰ رقمي لدكتور في المستشفىٰ اتصل بيا وبلغني بحالته، كلمت سيادة الوزير اللواء «ممدوح سالم» وافق علىٰ نقله لمستشفىٰ خاص، لكن أجله حان يا حاج ومات.

ظهر واقع الخبر علىٰ «طلبة» و«أسعد» فقد تغيرت أسارير وجوههم وبدا عليهم التأثر.

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! والله ما شفنا منه إلا كل خير.

قال «أسعد»:

- لكن «علي» في عز ما كان محتاج وكان الأسطىٰ «عزام» بيهدده بطرده من حجرته ليه ما فكرش يلجأ لكم.
- «علي» كان مقتنع بأفكار الحزب التابع ليه، كان بيعتبرنا طبقة رأسمالية، والدي -الله يرحمه- قبل أن يتوفىٰ خاف أن «علي» يبدد ثروته كتب لي أملاكه بيع وشراء علىٰ أن أُعطي علىٰ ميراثه بعد أن يعود عن أفكاره وينتبه إلىٰ مصنع والدي ويديره، «علي» زعل وقاطعنا، دورنا عليه كتير، كلم والدي رئيس الحزب فأعطانا عنوان «علي» المسجل بالحزب ولكن يبدو أنه كان عنوان وهمي.

دمعت عين «أسعد» وقال:

- الله يرحمك يا «علي».

نظرت سميحة إلىٰ «أسعد» وقالت له أنت «أسعد»؟

- أيوا.
- «علي» كان بيحبك وأوصىٰ لك بكل كتبه.

نظرت إلىٰ «أسعد» وقالت:

- ممكن أزور حجرة «علي»؟

- للأسف «عزام» صاحب البيت لما «علي» غاب عن دفع أجرة حجرتـه أجرهـا لسـكان غيـره، والـدي جـاب كـل حاجاتـه وشيلانها عندنا.

تم إحضـار متعلقـات «علي» بحثـت أختـه عـن ميداليـة، وجـدتها وقالت:

- الميدالية دي عزيزة علينا، دي دهب كانـت خاصـة بوالـدي -الله يرحمه-، فتحت القلب المعلق بالميدالية فظهرت صـورة والـد «علـي» ووالدتـه بـداخلها احتفظـت بهـا وبالمصـحف الخاص بـ «علي» وأهدت باقي المحتويات لـ «طلبة» والكتب لـ«أسعد»، قالت:
- يـا حـاج «طلبـة»، «علـي» حكـىٰ لـي عـنكم وأنـا بـازوره في المستشـفىٰ، وأنـا عـاوزة أسـيب لـك مبلـغ تطلعـه للمحتـاج رحمة ونور علىٰ روحه.

تسـرب وجـود الممثلـة «سـميحة فـؤاد» في بيـت «طلبـة»، تجمـع الأهالي حـول المنـزل حاولـت «أم عطيـة» إبعـادهم، قـال «عـزام» بعـد علمه أن «علي» النقاش أخو «سميحة» الممثلة المشهورة والمعـروف عنها ثراء أهلها:

- بقىٰ «علي» النقاش القشلان اللـي ماكـانش قـادر يـدفع إيجـار الأوضة يبقىٰ ابن ناس مبسوطين؟!

ثـم أكمـل في سـره «وأختـه تبقـىٰ لهطـة القشـطة دي؟ لـه في خلقـه شئون!».

حـرص «أسـعد» علـىٰ قـراءة الكتـب التـي أوصـىٰ بهـا الأسـطىٰ «علـي» لـه، أعجبـه نظامهـا الاقتصـادي والملكيـة الجماعيـة لوسـائل الإنتاج، رفع الولاية وتحرير العمال من العمـل عنـد الآخـرين، توقـف أمام عبارات استعصىٰ عليه فهمها إلا بعد قراءتها عدة مرات مثل قومية وسـائل الإنتـاج وإعـادة هيكلـة اقتصـاد السـوق وإلغـاء الطبقيـة، وأن الاشـتراكية تسـمح بتوزيـع الثـروة علـىٰ أسـاس مسـاهمة كـل فـرد في المجتمع بدأ تدريجيا.

ومن خلال زيارات «أسعد» لحزب التجمع بدأ يتقابل مع بعض المنتمين للفكر الشيوعي، بدأ يستمع إلىٰ ما يقال عن النظام في الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية وبدأ يقرأ عن «لينين» و«ماركس» و«إنجلز» و«ماوتسـي تـونج»، وصـدمه أقـوالهم عـن أن الـدين أفيـون الشـعوب، وتأكد من دعوتهم إلىٰ الإلحاد بعد أن قرأ تصريح «فلاديمير لينـين» في كتابه «الدين»: «الإلحاد جزء طبيعـي لا ينفصـل عـن الماركسـية وعـن نظرية وممارسة الاشتراكية العلمية».

وكذا قول «ستالين»: «إن الدين يؤخر التنمية البشرية».

عاد «أسعد» بذاكرته عندما فـرق بـين الشـيوعية والاشـتراكية، ثـم إنه صلىٰ جماعة مع أعضاء الحزب عندما كان يحين موعـد الصـلاة في أثناء الدورات التثقيفية.





الأسطىٰ «عزام» في الخمسين من عمره، يتجنب سكان الحارة التعامل معه، فهو عدواني يثور لأتفه الأسباب ويميل إلىٰ العنف في التعامل مع الآخرين خاصة من يتجرأ ويخالفه الرأي، ضخم الجثة قوي البنية، لا يقبل النصيحة إلا من الحاج «رجب» فهو شيخه ومرشده وولي نعمته، لا يرفع رأسه في حضرته ويقف أمامه كما يقف الكلب الأمين بين يد صاحبه.

مواصفات «عزام» وهي المواصفات التي يجب أن تتوافر في رجال الحاج «رجب» لذا اختاره وجعله همزة الوصل بينه وبين أهل الحارة.

تقدم «عزام» للزواج من «أم عطية» في أول يوم سكنها في الحارة ورفضته، فلم يعجبه الأمر، لم يتقبل الرفض فكيف ترفضه حرمه وهو «عزام» صاحب السطوة، ذهب إلىٰ حجرتها ليلًا ليكرر طلبه حتىٰ لو أجبرها بالتهديد بطردها، بمجرد ما عرفت أن الواقف ببابها «عزام»، صاحت بأعلىٰ صوت، تجمع أهل الحارة، أسرعت «أم عطية»

بالدخول إلىٰ سكنها وأتت بجردل به ماء غير نظيف وصبته فوق رأس «عزام»، حاول الفتك بها فمنعه بعض رجال الحارة فكانت فضيحة كبيرة لـ «عزام» لم ينسها بل وصمم علىٰ الانتقام من «أم عطية» خاصة بعد أن نعتته بالثور الهائج.

❋❋❋❋

الحاج «رجب» رجل مثقف، من كبار أعضاء إحدىٰ الجمعيات الخيرية، يجيد التحدث بأكثر من لغة، له اتصالات معلنة وأخرىٰ سرية بجهات خارج القطر المصري، مزدوج الشخصية، السماحة والتواضع هما الصفتان الظاهرتان عليه، دارس للدين علىٰ حرف، عنده كل الحجج التي تمكنه من إجادة اللعب بالأسانيد التي تحلل أي موضوع ثم يعود بأسانيد أخرىٰ لتحريم ما حلله، يناصب التطرف العداء في الظاهر، يصنف الناس بانتمائها العقائدي، يؤمن بالتُقية لإظهار خلاف ما يبطن، ظهر كرجل أعمال أسس بعض الشركات ذات البعد الإسلامي، مدعيًا أنه أحد الشركاء فقط في الملكية ليبرر جهات تمويله، في فترة زمنية قصيرة استطاع أن يقيم علاقات وطيدة مع المسئولين خاصة الأمنيين منهم، فالرجل مسالم موال للنظام ولا شيء أمني يدينه، لا ينتمي في العلن إلىٰ أي جماعة دينية، لا يشارك في أي نشاط له علاقة بالسياسة، لا يرتدي الزي الإسلامي ويمنع العاملين في شركاته من ارتدائه، يربي ذقن متوسطة الطول مصبوغة

بلون الحناء، دائم البسمة، يعلن دائمًا أنه مؤيد لنظام الحكم ويحرم الخروج علىٰ الحاكم.

****

طلب «عزام» من «أسعد» مرافقته لحضور درس الحاج «رجب» حيث أفاد «عزام» إنه توسط عند الحاج «رجب» لتوظيف «أسعد» وقال له:

- يا ريت يتمر فيك أنت وأبوك.

تعددت مرات حضور «أسعد» دروس الحاج «رجب»، لكن الحاج «رجب» لم يفاتحه في موضوع الوظيفة، لكنه استمر علىٰ حضور الدروس بناء علىٰ نصيحة أبيه، كثيرًا ما كان الشوق إلىٰ «خديجة» يتملك «أسعد» حتىٰ كاد أن يسأله عنها في أحد الدروس لكنه تنبه وتراجع.

كان درس الحاج «رجب» عن التطرف فقال:

«التطرف أمر نسبي يختلف حسب المعتقد، فما تعده أنت من التطرف يعده غيرك من التوسط والاعتدال، وقد يعده آخر من التساهل والتفريط، وهناك إشكالية وتباين في تفسير التطرف بين مفهومنا ومفهوم ثقافة الغرب، فبيننا وبينهم تباين كبير في المرجعية الدينية والثقافة والعادات والتقاليد مما يجعلنا من الصعب أن نتفق معهم في تعريفهم، الجهاد المشروع في سبيل الله ليس تطرفًا، التطرف هو

التفريط وعدم الغيرة علىٰ الإسلام والتساهل مع من يتهمون أئمتنا بالتشدد ومن يتجاوزون الحدود الشرعية».

شعر «أسعد» بأن حديث الحاج «رجب» مائع وغير محدد في وصفه للإرهاب وتذكر قول إمام مسجد السيدة نفيسة عن التطرف، لكنه غض الطرف ورفع يده يستأذن في الحديث: «يا شيخنا، الظلم كتر بين الناس، الفقير حقه ضايع، كل واحد عايز مصلحته وبس حتىٰ لو داس علىٰ غيره وظلمه».

ودون أن يدري تكلم بكلام «علي فؤاد» «مافيش توزيع عادل للثروات».

تبسم الحاج «رجب»، تأكد من أن «أسعد» فكره متخبط، وأنه عانىٰ كثيرًا في حياته، سأله عن اسمه:

- أنا «أسعد» ابن المعلم «طلبة» السائق من حارة «الشماشرجي».
- يا «أسعد» الإسلام له السبق علىٰ الاشتراكية في التوزيع العادل للثروات، أحكام المعاملات في الإسلام وسطية، الزكاة والصدقات يعتبران مشاركة في الثروات، والمبادئ الاشتراكية تتناسب مع مبادئ الإسلام، اصبر يا «أسعد» لعل الله يجعل لك مخرجًا، نبينا -عليه الصلاة والسلام- قال: «لا

يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»، سكت برهه، ثم استطرد قائلًا:

- قال الرسول -ﷺ-: «مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهِم، وتعاطُفِهِمْ مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَىٰ منْهُ عضوٌ تداعَىٰ لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّىٰ)، يجب أن يحب المسلم أخاه المسلم، لازم نطهر نفوسنا من الغل والتشاحن.

نظر الحاج «رجب» إلىٰ الحضور مبتسمًا ثم قال:

«أظلتنا أيام مباركة، فنحن في شهر ذي الحجة وقد حل ميعاد الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج إلىٰ بيت الله الحرام، وعن سيدنا النبي -ﷺ- أنه قال: «بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا»، والحج فرض عين علىٰ كل مسلم بالغ لقول ربنا -سبحانه وتعالىٰ- في سورة الحج: «وَأَذِّنْ فِي النَّاس بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»، وقد فرض الحج في السنة التاسعة للهجرة، ويجب علىٰ المسلم أن يحج مرة واحدة في عمره، فإذا حج المسلم بعد ذلك مرة أو مرات كان ذلك تطوعا منه، وفي حديث شريف رواه سيدنا أبو هريرة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال: «يا أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا»، فقال أحد الصحابة -رضوان الله عليهم-: «أيجب الحج علينا كل عام مرة يا رسول الله؟»، فسكت النبي، فأعاد

الرجـل سـؤاله مـرتين، فقـال النبـي: «لـو قلـت نعـم لوجبـت، ومـا استطعتم».

بعد الدرس نادي الحاج «رجب» علىٰ «عزام»، قال له:

- عقبالك، أنا مسافر الصبح لأداء فريضة الحج.
- حج مبرور يا سيدنا، ربنا يوعدنا، ترجع لنا بالسلامة.
- يـوم العيـد الصـبح تجيـب «أسـعد» معـاك، تسـتلموا نصـيب سكان الحارة من لحوم الأضاحي وتوزعوها علىٰ الناس، ثـم نظر إلىٰ «أسعد» وقال:
- «عزام» كلمني عنك، شهادتك إيه؟
- أنا معايا دبلوم تجارة، ومعفي من الخدمة العسكرية.
- تحب تشتغل معايا يا «أسعد»؟
- يا ريت يا حاج.
- أهم حاجة في شغلنا الأمانة والطاعة، ولا تسـأل عـن شـيء إلا لما نخبرك عنه.

استفادت الجماعـات الإسـلامية مـن العـداء بـين الـرئيس «أنـور السادات» وبـين الناصـريين والشـيوعيين، وفي سـبيل استقطابهم جعـل الشـريعة الإسـلامية المصـدر الرئيسـي للتشـريع في دسـتور ١٩٧١، وأخرج سجناء الجماعات الإسلامية من المعتقلات، وسمح للفـارين منهم إلىٰ الخارج بالعودة وأعطاهم الأمـان، وأعـاد الجنسـية المصـرية

لمن جردت منه، مما أتاح للحاج «رجب» وجماعته حرية الحركة في العلن.

بنىٰ «رجب» مسجدًا متعدد الطوابق، خصص الطابق الأرضي مسجدًا للصلاة يلقي فيه دروسه الدينية هو ومشايخ جماعته، وكان هدفهم المعلن «القضاء علىٰ الإلحاد والشيوعية»، والطابق الأول في الصباح دار حضانة، وفي المساء يستخدم مركز لتلقي الدروس التعليمية نظير أجر بسيط، واستقدم له أفضل الأساتذة المتخصصين، والطابق الثاني مستوصف لعلاج غير القادرين بأجر رمزي، والدور الأخير سكن للمغتربين العاملين في شركاته.

يدقق «رجب» في اختيار من تتوفر فيهم المواصفات المطلوبة للعمل في شركاته أو لمساعدته في العمل الخيري.

ظلت العلاقة طيبة بين الرئيس «السادات» والجماعات الإسلامية إلىٰ أن خطب في مجلس الشعب في التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧ وأعلن:

«أنا جاهز للذهاب إلىٰ جنيف، بل لا أخفيكم وأنتم ممثلو الشعب وعلىٰ مسمع من شعبنا وعلىٰ مسمع من أمتنا العربية، أقول إنني مستعد أن أسافر إلىٰ آخر مكان في هذا العالم إذا كان هذا ما يحمي أن يجرح لا أن يُقتل عسكري أو ضابط من أولادي، أنا أقولها فعلا، مستعد أن أذهب إلىٰ آخر هذا العالم، وستدهش إسرائيل عندما

تسمعني أقول الآن أمامكم إنني مستعد أن أذهب إلىٰ بيتهم إلىٰ الكنيست ذاته ومناقشتهم».

غضب الناصريون والاشتراكيون والشيوعيون وغضبت الجماعات لخطوة الرئيس «السادات» وعدم التنسيق معهم، تعددت الزيارات بين كبار الجماعة الدينية وكبار رجال الأحزاب، رغم اختلاف أفكارهم، فقد اتفقوا أن عدم تنسيق «السادات» معهم خيانة لهم وأعلنوا معارضتهم للزيارة، بل وصفوا الرئيس والوفد المرافق له بالخيانة، لم يعلن الحاج «رجب» معارضته، بل حرّم الخروج علىٰ الحاكم، فظهر خلاف عقائدي بينه وجماعته وبين بعض الجماعات، وتطور الأمر في بعض الأحيان لوقوع قتال بينهم.

زار الرئيس إسرائيل يوم السبت ١٩ من نوفمبر ١٩٧٧، وكان هذا إعلان انتهاء التوافق بين الجماعات الإسلامية والأحزاب والرئيس «السادات»، وبدأت الجماعات تعلن معارضتها للزيارة، سبقهم «السادات» قبل أن يوحدوا صفوفهم ووضعهم في المعتقلات، فلجأت الجماعات إلىٰ العمل السري.

خطب الحاج «رجب» في مسجده خطبة بليغة في تحريم الخروج علىٰ الحاكم وقال:

«ذهب غالب أهل السنة والجماعة إلىٰ عدم جواز الخروج علىٰ الأئمة بالسيف ما لم يصل بهم ظلمهم وجورهم إلىٰ الكفر البواح، أو

ترك الصلاة والدعوة إلىٰ تركها، وإنه هناك أكثر من مائة حديث في تحريم الخروج علىٰ الحاكم».

وعلق يافطات أمام شركاته بها صورة للرئيس «السادات» ويعلن فيها ولاءه للنظام وأن الخروج علىٰ الحاكم فتنة، رفض بعض أعضاء جماعته مبدأ محاباة السلطة في العلن وطالبوا بإظهار العداء وبدأوا في الانسلاخ عن الجماعة والانضمام إلىٰ جماعات أخرىٰ أو تشكيل جماعات جديدة.

الطاعة العمياء هي أول مبادئ «رجب» وجماعته، يغسلون أدمغة الشباب، يتحدثون عن الضعفاء والمهمشين وقواعد العدالة والحلال والحرام، يدققون بين المنتسبين إليهم، من يجدونه بيئة خصبة يجندونه ويضموه للجماعة، والتلقين الأخير للمختارين «كن بين يد شيخك كالميت في يد مغسله».

تم توظيف «أسعد» بائعًا في إحدىٰ شركات الحاج «رجب»، أطلق لحيته تشبهًا بالعاملين.

علق إعلانًا عن قيام رحلة ترفيهية للعاملين إلىٰ منطقة الفيوم، حرص «أسعد» علىٰ المشاركة فيها فهو يسعىٰ دائما إلىٰ لفت نظر الحاج «رجب» وتمنىٰ لو استطاع أن يعرف منه أخبار محبوبته «خديجة».

اكتسب «أسعد» ثقتهم، همس له أحد العاملين:

- يوم الجمعة فيه رحلة، مش لأي حد للصفوة بس، تحب تيجي معانا؟
- بس مافيش إعلان اتعلق في اللوحة عن الرحلة.
- رحلات الصفوة ما بيتعلنش عنها على الملأ، تيجي معانا؟
- معنى دا إنكم اخترتموني أكون منكم.
- أيوا.
- إن شاء الله أنا معاكم.
- يبقي ما تجيبش سيرة لحد.

في الرحلة تم أخذ العهد على «أسعد» بالولاء للجماعة وأقسم أمام الجميع على المصحف، طلب منه مسئول الرحلة عدم التصريح لأحد حتى لأبويه عن هذه الرحلات وما يحدث فيها، تعددت مرات مشاركته الصفوة المختارة من الموظفين في رحلاتهم بمناطق الظهير الصحراوي للمدن، حيث الهواء النقي الذي يساعد مع التمارين الرياضية على إكساب الشباب للياقة البدنية، جسم «أسعد» الفارع الذي ورثه عن أبيه ساعده وبدأت عضلاته تتشكل ومظهره يختلف بدت عليه مظاهر القوة، وحرص على إظهار الولاء التام فكان ضمن المنتقين للتدريب على استخدام السلاح بجميع أنواعه بدءًا من الأسلحة البيضاء وحتى المسدسات والبنادق وتركيب المفرقعات لعمل القنابل بأبسط المواد.

بعض أفكار «علي فؤاد» ما زالت تراود «أسعد»، لكنه كان يجاهد لطردها ويغلب فكر الجماعة علىٰ فكر «علي»، فالجماعة تضمن له عملًا ودخلًا ثابتًا وفرصته أن يقترب من «خديجة» تظل قائمة ولو أنها مستبعدة، بدأ الحاج «رجب» يرقي «أسعد» سريعًا في العمل فرقاه من بائع إلىٰ رئيس قسم ورفع مرتبه.

بدأ اسم «شكري مصطفي» وجماعة التكفير والهجرة يترددان بين الصفوة من العاملين بالشركة، وتبادلوا التهنئة بعد خطف جماعة «شكري» للشيخ «الذهبي» وزير الأوقاف من مسكنه في حلوان يوم ٣ يوليو 1975، وأعلنت الجماعة شروطها للإفراج عنه من بينها الإفراج عن المعتقلين من الجماعة، والمنتمين للجماعات الدينية المحكوم عليهم في قضايا سابقة، ودفع مائتي ألف جنيه فدية، وأن تعتذر الصحافة المصرية عما نشرته من إساءات في حق الجماعة، رفضت الحكومة الشروط فتم قتل الشيخ بإطلاق الرصاص علىٰ عينه اليسرىٰ وعثرت أجهزة الأمن علىٰ جثته في فيلا بمنطقة الهرم، سارع الحاج «رجب» بالتنبيه مشددًا بعدم أي ذكر لجماعة التكفير والهجرة في شركاته.

تصنع «أسعد» مشاركة صفوة الجماعة الحزن بعد القبض علىٰ «شكري مصطفىٰ» وأربعة وخمسين من أعوانه ومحاكمته أمام المحكمة العسكرية في ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ وفي ٣٠ نوفمبر ١٩٧٧ أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بالإعدام شنقا علىٰ خمسة

متهمين، من بينهم «شكري مصطفىٰ»، وعاقبت ١٢ متهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، و١٤ متهما بالأشغال الشاقة المؤقتة، ومنحت البراءة لـ١٣ متهما، وأُعدِم «شكري مصطفي» في ٣٠ مارس عام ١٩٧٨.

الدروس الدينية للحاج «رجب» في الرحلات التدريبية للصفوة مختلفة عما يلقيه في المسجد، ففي هذه الدروس يكفر المجتمع صراحةً ويتهمه بالجاهلية، وأن الناس انصرفوا عن عبادة الخالق لعبادة المخلوق، يأخذون شريعتهم من غير شريعة الله، ولا نجاة للمسلمين إلا بانفصالهم عن أهل الجاهلية.

بعد التدقيق اختار الحاج «رجب» «أسعد» ليكون علىٰ رأس جماعة من الشباب ولم يسند إليهم مهمة محددة وأمرهم بتتبع السرية والكمون وعدم الإعلان عن أنفسهم، شعر «أسعد» بأهميته، فمن بين أفراد جماعته حاصلين علىٰ مؤهلات عليا، يأمر فيُطاع حتىٰ إنهم أطلقوا عليه فيما بينهم لقب «الأمير»، غير نظام ملابسه وارتدىٰ جلبابًا قصيرًا وتحته سروال قصير وطالت لحيته، وبدأ يفتي في الحلال والحرام، ويكفر المجتمع ومن يخالفه، استدعاه الحاج «رجب» وعنفه وطلب منه ألا يناديه أحد بـ «الأمير» ويعود يرتدي الملابس العادية، بل ويحلق ذقنه هو وجماعته وألا يحتك بأي أحد، ثم قال له:

- عليكم أن تكونوا مستعدين لتنفيذ ما يطلب منكم فقط.

لم ينس «أسعد» أبدًا «خديجة» فحبها ساكن قلبه.



كبرت «حبيبة» ابنة «أم عطية» وأصبحت فتاة جميلة تشبه أمها، كانت تقتني راديو ترانزستور مؤشره ثابت علىٰ إذاعة «أم كلثوم»، كانت تنتظر مغرب كل يوم انتهاء وصلة «أم كلثوم» و«محمد عبد الوهاب» و«فريد الأطرش»، وتندمج بالغناء مع «عبد الحليم حافظ» ونجاة الصغيرة، ونجاة الصغيرة بصفة خاصة لها مكانة عندها فهي تعشق صوتها الحنون وتحفظ الكثير من أغانيها، تسلل «أسعد» إلىٰ قلبها وكانت تتمنىٰ أن تلفت نظره إليها، كانت جالسة مع أمها في بيت «أم أسعد» تستمع لأغنية «نجاة» «ليه خليتني أحبك لا تلومني ولا أعاتبك فين أهرب من حبك روح منك لله»، دخلت الكلمات قلبها البكر فأخذت تدندن بصوت خفيض، أفاقت علىٰ يد تنتزع من يدها الراديو، هبت واقفة لتجد «أسعد» بقامته الفارعة واقفًا أمامها وقال لها معنفًا: «الغناء حرام».

نهرته أمه وقالت له:

- سيبها يا «أسعد»، بتحرموا وتحللوا علىٰ كيفكم.

نظرت «حبيبة» في عين «أسعد»، ابتسمت في رقة وقالت له بعذوبة:

- حاضر يا «أسعد».

شعر «أسعد» وكأن «حبيبة» غزت روحه، تبدلت أساريره وظهرت علىٰ وجهه ابتسامة خفيفة، أرخت «حبيبة» عينيها فلاحظ «أسعد» جمال وجهها وكأنه يراها للمرة الأولىٰ، ابتسمت في خجل وسارعت بمغادرة المكان، لفت جمال جسدها الممشوق نظر «أسعد»، فتابعها حتىٰ خرجت من الباب.

لم تغب نظرات «أسعد» لـ «حبيبة» عن عين أمها أو عين «أم أسعد»، نظرا إلىٰ بعضهما وتبادلا الابتسام.

أستغفر «أسعد» ربه في سره.

في الليل بدأت صورة «حبيبة» تزاحم صورة «خديجة» لكن الغلبة كانت لـ «خديجة» دائمًا.

تعددت اللقاءات بالمصادفة بين «أسعد» و«حبيبة»، كانا يتبادلان النظرات، شدته ابتسامتها الخجولة، كان يتمنىٰ ألا تسارع بالمغادرة، وفي كل مرة يلوم نفسه ويستغفر ربه ويعاود الوضوء.

كان «أسعد» يجلس علىٰ الأريكة في صالة البيت، دخلت «حبيبة»، ترتدي ثوبًا من أثواب البيت «جلابيه بناتي» بيضاء عليها نقش ورد صغير، كانت لا تضع غطاءً علىٰ رأسها تاركه شعرها الطويل الناعم ينسدل خلف ظهرها، وجدته جالسًا وحده ارتبكت، بدت له

كملاك، وعلىٰ غير العادة مدت يدها له بالسلام، لم يرفض يدها ولم يهتم أنها ستنقض وضوءه، أمسك يدها كانت دافئة مثل قلبها، نظر في عينيها وبادلته النظرات بخجل، نظر إلىٰ صدرها الناهد الذي راح يعلو ويهبط مع تسارع دقات قلبها، تملكها شعور جميل فقد كان حب «أسعد» قد ملك كيانها، شدها إليه، تراجعت حتىٰ استندت إلىٰ الجدار، اقترب أكثر وأغمضت عينيها، لم تبدِ أي مقاومة، ذاقا معًا قبلتهما الأولىٰ، تحسس صدرها بيده، ارتجفت أبعدت يده وفرت هاربة.

بعد أن خرجت «حبيبة» جلس «أسعد»، لام نفسه بشدة، وتعجب من تصرفه، أخذ يلعن الشيطان الذي جعله ينزل إلىٰ الخطيئة، قام فاستحم فتجديد الوضوء غير كاف.

رغمًا عنه ما زالت «خديجة» متربعة في قلبه، ورغم ذلك كان ينتظر «حبيبة»، تكررت القبلات الخاطفة، وفي إحدىٰ المرات قالت له:

- بحبك قوي يا «أسعد».

لم يرد عليها واكتفىٰ بالابتسام.

لاحظت «أم عطية» التغيرات التي بدأت تظهر علىٰ سلوك «حبيبة»، منعتها من دخول بيت «أم أسعد» إلا برفقتها.

قال «طلبة» ل«أم أسعد»:

- «أسعد» كبر وعنده مصدر دخل ثابت وملتزم دينيا، عايزينه يكمل نص دينه ونجوزه.
- يا ريت يا «طلبة» نفسنا نفرح.
- أنا شايف إن «حبيبة» بنت «أم عطية» مناسبة ليه، مؤدبة وحلوة وملاحظ أن عينيها منه.
- يا ريت، البنت متربية علىٰ أيدينا وبنت مدارس وعلىٰ قد حالنا.

صارحت «أم أسعد» ابنها:

- أبوك عايز يخطب لك «حبيبة» يا «أسعد».
- يا أمي أنا ما بافكرش في الجواز.
- ليه يا ابني لا سمح الله، هي «حبيبة» وحشة؟ دي جميلة ومتربية علىٰ أيدينا وهتعيش عيشتنا وهي راضيه، وأنت عينك منها.
- أنا مش رافض «حبيبة»، أنا رافض من الأصل إني أتجوز وأجيب مراتي تسكن معانا في الحارة! أنا نفسي أخرج من هنا.

في الحقيقة كانت «خديجة» مسيطرة علىٰ قلب وفكر «أسعد» رغم أنه لم يرها من سنين ورغم اشتياقه إلىٰ قبلات «حبيبة» التي لم تعد تدخل بيتهم إلا برفقة أمها، إلا إن الأمل كان يساوره في إمكانية ارتباطه بـ «خديجة».

يعلم «أسعد» أن الحاج «رجب» لم يختره ليكون علىٰ رأس جماعة لتدينه وإنما لتفوقه في التدريبات وقوته الجسمانية وطاعته العمياء، وبما أن أفراد جماعته خلفيتهم دينية ومنهم من حصل علىٰ مؤهل دراسي عال، فلا بد أن يظهر أمامهم بالمتبحر في الدين ليتمكن من السيطرة عليهم، بدأ يثقف نفسه دينيًا من الكتب التي يميل فكر الجماعة إليها، بدأ يقرأ الأفكار الجهادية الخاصة بكيفية إقامة الدولة الإسلامية، وتوحيد وتأصيل فكر الحاكمية بإفراد الله -سبحانه وتعالىٰ- وحده في الحكم والتشريع، مع أن هذا الفكر بدأه الخوارج، وحرص علىٰ أن يحفظ الآيات القرآنية التي تتحدث عن ذلك مثل الآية رقم ٤١ من سورة الرعد ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ والآية رقم ٥٠ من سورة المائدة ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقوله :﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللهِ﴾ وليدلل علىٰ أن من أطاع الحكام مشرك كان يردد الآية كان يردد الآية ١٢١ من سورة الأنعام ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، كما حرص علىٰ قراءة فكر «سيد قطب» في كتابه «معالم في الطريق»، ولـ «صالح سرية» «رسالة الإيمان»، ولـ «محمد عبد السلام فرج» «الفريضة الغائبة»، و قرأ لـ «أبي الأعلىٰ المودودي» «كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن» بعد أن تأكد أن هذه الأفكار هي حجر الأساس لأفكار الحاكمية وتكفير المجتمع لاحظ «أسعد» أنه علىٰ الرغم من تطابق فكر جماعة الحاج «رجب» مع هذه الأفكار في

المضمون، إلا إن التطبيق يخضع لما يراه كبار الجماعة وبما يتوافق مع مصالحهم الشخصي.

حرص «أسعد» علىٰ الظهور بمظهر المتشدد الحريص علىٰ الدين، وبدأ يكثر الحديث عما يقرأه من أفكار مع جماعته، ليثبت لهم أنه علىٰ علم ويستحق أن يكون أميرهم.

كثيرًا عندما يختلي «أسعد» بنفسه يمر بفكره ما قرأه في الكتب عن الاشتراكية والشيوعية وكثيرا ما أصابته الحيرة والارتباك الفكري، لكنه كان يوازن في حساباته والغلبة مع من يضمنون له الدخل المالي والعمل الثابت، حتىٰ لو كان يتشكك في مبادئهم.

رغم تنبيه الحاج «رجب» علىٰ «أسعد» بأن تشكيل جماعته يظل سريًّا وألا يحتك أحد من جماعته بالناس إلا أن شهوة السيطرة وشعورهم بأهميتهم كان قد تملكهم، يستوقفون الناس ويسألونهم هل أديتم الصلاة جماعة، بل ويجبرونهم علىٰ التوجه إلىٰ المسجد لتأدية الصلاة، وأصبحت السيدات تخشىٰ من الخروج لأن الجماعة تعترضهم بحجة أن ملابسهم غير إسلامية ويطالبونهم بارتداء النقاب، لبس أفراد الجماعة ثوب الدين ظاهريًّا، واستعذبوا لقب الشيخ الذي يسبق اسم كل منهم ويمنحهم السلطة، قلبوا حياة الناس جحيمًا.

خرجت «أم عطية» لقضاء مصالحها، اعترضها شاب من الجماعة:

- أنت يا حُرمة ليه مش منتقبة؟
- أنت ما لك؟
- أنت ما تعرفيش دينك، ولازم تتربي من جديد.
- تربي مين يا قليل التربية؟! لو كانت أمك ربتك كنت عرفت تكلم الناس كويس.

سمع «هريدي» صوت «أم عطية» خرج يستطلع الأمر، عنف الشاب، وكان يعتقد أن الشاب سيخجل منه، تفاجأ أن الشاب يتهمه بأنه قليل الدين، ثار «هريدي» وارتفع صوته، خرج «طلبة» وبعض الجيران، تحول الأمر إلىٰ شجار انتهىٰ بضرب الشاب بشبشب «أم عطية» علىٰ رأسه.

حذر «طلبة» «أسعد» من تكرار احتكاك أفراد جماعته بالناس، قال له:

- الولاد دول تبعك يا «أسعد»، لا أنت ولا هما فاهمين الدين صح، الدين يسر ودينا وسط ودين الحرية والعدل، وانتشر بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، أنتم ماسكين من الدين القشور وسايبين الجوهر، يا ابني بشروا ولا تنفروا.

وصل أمر المشاكل التي تتسبب فيها جماعة «أسعد» إلىٰ الحاج «رجب»، علم أنهم لم يفهموا هدفه من تشكيل الجماعة وأن دورهم في إقامة الشريعة لم يحن بعد، خاف من ثورة

الناس عليهم وخروج الأمر من يده، أمر «عزام» أن يبلغ «أسعد» بقراره حل الجماعة.

لم يعجب الأمر الذي نقله «عزام» لـ «أسعد» بحل الجماعة «أسعد»، هذا الأمر يجرده من سلطته وسطوته التي افتقدها طوال عمره، اجتمع «أسعد» بجماعته، أخبرهم أن الحاج «رجب» خرج عن العقيدة الصحيحة وأنه يتهاون في تطبيق الشريعة الإسلامية ويهادن الشيوعيين الكفرة والحاكم الظالم ثم قال لهم:

- «رجب» لم يعد شيخي من الآن، ليست هذه هي المرة الأولىٰ التي ينهاني فيها عن إقامة شريعة الله، والآن أمرني عن طريق «عزام» بحل الجماعة، أنا تظاهرت بالطاعة، لكنني سأُبقي علىٰ جماعتنا لتكون نواة لتشكيل جماعة أكبر تعمل علىٰ نشر الدين الصحيح، لكل منكم مطلق الحرية في البقاء أو الخروج من الجماعة.

أعلن الجميع طاعتهم وبايعوا «أسعد» بالإمارة عليهم، أمرهم بجعله سرًا، أخذ عليهم العهد بالقسم علىٰ كتاب الله، ثم قال:

- سيظل كل منا في مكانه في شركات الحاج «رجب» حتىٰ يظهر الله لنا أمرًا آخر.

****

بدأ «أسعد» يتغيب كثيرًا عن المنزل، ولم يعد «طلبة» يقلقه غيابه، وكلما حضر كان يثير المشاكل بفتواه في الحلال والحرام.

تتصارع «خديجة» و«حبيبة» في خيال «أسعد» لكن النصر دائمًا من نصيب «خديجة» رغم اشتياقه إلىٰ شفاه «حبيبة»، كان يحلم بـ «خديجة» في بيته تعد له الطعام وتقاسمه فراشه.

أُعلن عن عقد قران في مسجد الحاج «رجب» لأخ من الجماعة علىٰ أخت توفيَ زوجها واستوفت شروط العدة.

أخذ الحاج «رجب» يوعظ الموجودين ثم قال:

«روىٰ الترمذي عن سيدنا النبي -ﷺ-: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»، رفع «أسعد» يده فأذن له الحاج «رجب» أن يسأل:

- يا سيدنا الشباب غلابة والناس بتغالي في المهر والشبكة.

رد الحاج «رجب»:

- أهم من الفلوس والمهر والشبكة والتكاليف الباهظة وجاه الدنيا الزائل إن العريس يكون علىٰ دين وخلق وصلاح، ولا فضل لغني علىٰ فقير إلا بالتقوىٰ، في عصور الإيمان الحقيقي كان المؤمنين يزوجون بناتهم لحامل القرآن، فما يحمله العريس من آيات القرآن الكريم هو مهره، متاع الدنيا من المال والجاه زائل.

أوصىٰ الحاج «رجب» الحاضرين بتزويج بناتهم وقال:

- من سنن الله –سبحانه وتعالىٰ– في الكون أنْ جعل التّكاثر في الأرض سنة لإعمارها، شرع الإسلام الزّواج وحثّ عليه في الكتاب والسّنة قال –ﷺ–: «يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنّه أغض للبصر، وأحصن للفرج»، ثم بدأ في إجراءات عقد القران في حضور مأذون ليوثق الزواج رسميًّا.

أحيا حديث الحاج «رجب» الأمل في قلب «أسعد» في أن يقبله زوجًا لـ «خديجة» ذهب لمقابلة «عزام» وقال له:

- أنا قاصدك في خدمة يا شيخنا.
- خدمة إيه؟
- نروح سوا للحاج «رجب»، أطلب إيد «خديجة» بنته، وهو مش هيرفض طلبي لو جيت معايا.

الأمر كان مفاجأة لـ «عزام»، تغيرت ملامحه وظهر علىٰ وجهه الغضب وانتفض واقفًا، أمسك بتلابيب «أسعد» يهزه بعنف حتىٰ كاد أن يخنقه، وقال له:

- أنت غشيم زي أبوك، ماعندكش أي تمييز أو تقدير، إياك أسمعك تعيد الكلام دا تاني علىٰ لسانك الزفر اللي عايز قطعه، عايز يا صعلوك تتجوز بنت الحسب والنسب، أنت

فين وهي فين؟ أنت ابن «طلبة» السواق وهي بنت سيد الناس الحاج «رجب»، أفهم يا بهيم أنت تحت وهي فوق، فوق، كل فولة وليها كيال، ولو وصل الكلام للحاج «رجب» هيطردك من الشغل وترجع صايع أو تباع علىٰ عربة أبوك.

أغتاظ «أسعد» من كلام «عزام» ولهجته وتشبيهه بالبهيم، آثر السكوت للسلامة لكنه قرر الانتقام من «عزام» عندما تحين الفرصة، أخذ «أسعد» يتقرب من الحاج «رجب» ويتحين الفرصة ليفاتحه ويطلب منه يد ابنته «خديجة».

في المسجد بعد درس المغرب اقترب «أسعد» من الحاج «رجب»، أطرق برأسه في الأرض، حزم أمره ثم قال له بصوت خفيض لا يصل إلىٰ مسمع الحاضرين:

- يا سيدنا، أريد أن أتشرف بنسبك وأخطب ابنتك ذات الدين والعفاف.

ابتسم الحاج «رجب» ووضع يده علىٰ كتف «أسعد»، حتىٰ ظن «أسعد» أنه سيوافق علىٰ تزويجه من ابنته «خديجة».

قال الحاج «رجب»:

- يا ابني للزواج شروط أهمها أن يكون الزوج كُفء لزوجته عشان تنتظم بينهم الحياة، والشرط دا لا ينطبق عليك، «خديجة» مصروفها اليومي أكتر من مرتبك في الشهر، عمومًا

«خديجة» مخطوبة وفرحها بعد شهرين وأنت معزوم علىٰ فرحها.

أطرق «أسعد» برأسه، فقد أيقن أن الحاج «رجب» يظهر خلاف ما يبطن، يوعظ الناس بكلام لا يؤمن به، ظهر التجهم علىٰ وجهه.

تعجب «رجب» من جرأة «أسعد»، لم ينسَ ما بلغ به من خروج «أسعد» عن الطاعة.

عاود «رجب» الابتسام وقال لـ «أسعد»:

- يا «أسعد» عروستك عندي، أخت من الأخوات ذات دين توفي عنها زوجها وهو يجاهد في سبيل الله، خلصت فترة العدة من أيام، ولا يوجد مانع شرعي من زواجها، وسأزوجها لك وسأتكفل بكل المصاريف وهي ساكنة في شقة في عمارة ملكي في حدائق القبة.

لم يعترض «أسعد» وأظهر الطاعة وهم بتقبيل يد الحاج «رجب» الذي سارع بسحب يده.

لم يخبر «أسعد» والديه بموضوع زواجه، فأكيد سيعترضون لأن العروس سبق لها الزواج، بعد أسبوع حضر الحج «رجب» واثنان من الشهود في شقة العرس في حدائق القبة، وقبل كتب الكتاب قال الحاج «رجب» لـ «أسعد»:

- عليك أن ترىٰ وجهها، فالنظرة الشرعية سنة، لقوله -ﷺ-: «إذا خطب أحدكم امرأة فإن استطاع أن يرىٰ منها ما يدعوه إلىٰ نكاحها فليفعل».

ثم نادىٰ علىٰ العروس وقال لها:

- «أسعد» سيدخل إليك ليرىٰ وجهك فاكشفيه له.

كانت إحدىٰ السيدات موجودة مع العروس، كشفت وجهها لـ«أسعد»، في ملامحها جمال حزين لكنها تكبره في السن، علم أنها تكبره في السن بسبعة أعوام معها بنتان في مراحل التعليم المختلفة، لم يتبادلا الحديث.

خرج وأعلن موافقته علىٰ الزواج الذي سيرفع قيمته عند الحاج «رجب» ويجعله يأمن جانبه، ويكفي أنه سيغادر حارة «الشماشرجي» لمنطقة حدائق القبة الراقية.

عرف «أسعد» اسم عروسه وقت كتب الكتاب، بعد عقد القران هنأ الحاج «رجب» العروسين وأوصىٰ «أسعد» بزوجته خيرًا.

الشقة علىٰ أعلىٰ مستوي بها كل ما يلزم للحياة، فتح الثلاجة وجد أنها مكتظة بالفواكه واللحوم والدواجن، توضأ وصلىٰ بعروسه ركعتين لله، أمر عروسه بخلع النقاب، ثم دار بينهما حديث تعارفا فيه علىٰ بعضهما، دخل «أسعد» علىٰ عروسه، مع أول قبلة بينهما كانت المقارنة في صالح شفاه

«حبيبة» بنت «أم عطية»، وعندما أحتضها سيطرت عليه صورة «خديجة».

رغم أن «أسعد» يتبني مبادئ الجماعة ظاهريًا فقد كان حريصًا علىٰ البقاء ضمن الجماعة ليضمن عمل ودخل ثابتين وليكون بالقرب من محبوبته «خديجة»، وهو يعلم أنه لو عرف تراجعه عن فكر الجماعة ستتم تصفيته جسديًا، وفي نفس الوقت قرر أن ينمي جماعته ويعمل في السر لصالح نفسه.

لم ينس «أسعد» «خديجة» أو «حبيبة»، رغمًا عنه كان يفكر فيهما.

علمت «أم أسعد» بزواج ابنها، ذهبت لزيارته، فتحت لها زوجته الباب:

- السلام عليكم، أنا «أم أسعد».
- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا حاجة، اتفضلي.
- أهلاً بيك يا أختي، أمال فين مرات «أسعد»؟
- أنا زوجة «أسعد».

صدمت «أم أسعد» بشدة كانت تظنها أم العروس، ابتلعت ريقها وتركت ما حملته من زيارة، خرجت وقدماها لا تكادان تحملانها.

عادت إلىٰ حارة «الشماشرجي» حزينة قالت لـ «طلبة»:

- ابنك اتجوز أرملة معاها بنتين من جوزها إلىٰ مات ومقرباني في السن، وانخرطت في بكاء شديد، ثم راحت في إغماءة، استعان «طلبة» بـ «أم عطية» لإفاقتها، حيث نثرت بعض المياه علىٰ وجهها وضعت بعض الرائحة علىٰ أنفها حتىٰ أفاقت لكنها ظلت تبكي بحرقة و«أم عطية» و«طلبة» يحاولان تهدأتها وتطييب خاطرها.

لازمت «أم أسعد» الفراش حزينة، كانت «أم عطية» تقوم بكل أعمال المنزل هي وابنتها «حبيبة»، وتحاول أن تسري عنها، لكن الحزن علىٰ ابنها تملكها وجعلها تتذكر «هاني» أخو «أسعد» فتبكي، تسلل الخدر إلىٰ جسدها حتىٰ فقدت القدرة علىٰ التحكم في أعضائها، شخص الأطباء حالتها بالاكتئاب الحاد، تدهورت حالتها وأصبحت تدخل في نوبات إغماء وعندما تفيق تبكي، لم تتخل عنها «أم عطية» ظلت بجوارها تمرضها وتنفذ تعليمات الأطباء، طلبت «أم أسعد» أن ترىٰ ابنها، استدعاه «طلبة»، سارع بالحضور، حلس بجوار أمه مد يده ومسح دمعة من تحت عينها، قالت له:

- قلبي وربي غضبانين عليك لحد ما ترجع عن الطريق اللي أنت ماشي فيه.

زلزلت الكلمات «أسعد»، فبكىٰ وانصرف.

أشارت «جمالات» إلىٰ «طلبة»، اقترب منها، قالت له:

- نفسي أموت في بلدنا يا «طلبة».

قال «طلبة» إن أمبارح شديت تلغراف لـ«محمد» ابن عمنا، بلغته فيه إنك مريضة.

بعد يومين حضر ابن عمهما من قريتهم بصحبة زوجته وأختها وهما من نفس عائلة «عتمان»، قال «طلبة» لـ «جمالات»:

- يوم ولا اتنين تتحسن حالتك نسافر البلد.

اشتد الوجع علىٰ «جمالات»، امتنعت تمامًا عن تناول الطعام، في حضور «أم مريم» و«حسنة»، طلبت من «أم عطية» أن تقترب منها، أمسكت يدها وقالت:

- وصيتك «زينب» و«أسعد».

ثم سكتت تلتقط أنفاسها وعادت توصيها:

- وصيتك «طلبة» يا «فواكه».

ثم أسلمت الروح.

عادت «جمالات» إلىٰ بلدهم لتدفن فيها، خرج أهل القرية جميعهم لحضور الدفن، أقيم سرادق للعزاء أكتظ بالمعزيين، رغم حزن «طلبة» علىٰ زوجته، فوجوده فوق أرض قريته أشعره بالدفء وأنه ليس وحده، فسجد لله شاكرًا.

لم يحضر «أسعد» دفن أمه، كان في مهمة تابعة للجماعة خارج محافظة القاهرة، شعر بكراهية شديدة للحاج «رجب» ولجماعته.

تغير مظهر «طلبة»، أكله الحزن علىٰ وفاة زوجته، كان يبكيها كلما خلا بنفسه، القرآن لا ينقطع من الراديو بمنزله، فراق «أم أسعد» أثّر في «أم عطية» بكت حتىٰ تورمت عيناها، وارتدت السواد، كانت صباح كل يوم بعد انتهاء عملها وخروج «طلبة» إلىٰ عمله تدخل بيته وتراعي «زينب» وتعد الطعام، وتغادر قبل أن يعود «طلبة»، ولم تنس أن تخبز الشريك وقرص الرحمة وتذهب لزيارة قبر «أم أسعد»، تبكي صديقتها عند القبر وتوزع الشريك وقرص الرحمة علىٰ سكان المقابر.

****

عُلقت دعوات فرح «خديجة» ابنة الحاج «رجب» علىٰ جدران شركاته يدعو فيها العاملين لحضور حفل الزواج.

حُددت أماكن الموظفين التي سيكونون فيها يوم الفرح، وأكثرهم انتشر كحراسة علىٰ الفيلا التي يقام بها الفرح من الخارج، فالحاج «رجب»، يخشىٰ من أعدائه من أعضاء الجماعات الأخرىٰ، تعمد الحاج «رجب» أن يكون مكان «أسعد» بالقرب من كوشة العروسين، فرح «أسعد» بمكانه القريب من محبوبته.

انتظر «أسعد» حضور العروسين ليرىٰ «خديجة»، كان يمني نفسه بأنها حتمًا ستتذكره، ظل يتخيل كيف صار شكلها الآن فهو يذكر شكلها من آخر مرة رآها من سنين بملابس المدرسة، أكيد أصبحت

أجمل، تخيل بسمتها عندما تراه أمامها، وقال في نفسه: «يجب أن أتماسك وأخفي ما أكنه لها من حب».

حضر العروسان، وقف «أسعد» قبالتهم، رأىٰ «خديجة» في فستانها الأبيض وترتدي حجابًا أبيض أشبه بطرحة الزفاف ووجهها مصبوغ بالمكياج، تغير شكلها، فقدت براءة الطفولة، أصبحت امرأة متفجرة الأنوثة، وقع نظر «خديجة» عليه، تأكد من تلاقي نظراتهم، خفق قلبه بشدة، ولكنها لم تعره أي اهتمام، تعمد أن يطيل الوقوف في مواجهتها مباشرة، أفاق علىٰ يد تربت علىٰ كتفه تطلب منه التنحي ليتمكن من تصوير العروسين، ضحكت العروس وأخذت وضع التصوير وهي تنظر إلىٰ عريسها بحب، تبادلا شرب عصير الفاكهة، وارتدت شبكة فاخرة من الذهب المكسو بالأحجار الكريمة.

صدم «أسعد» بتجاهل حبيبته له، جرحه عدم إبدائها أي اهتمام، كل ما كان يتمناه نظرة وابتسامة، كانت حلمه الأوحد ونافذة السعادة التي يطل منها علىٰ الدنيا، أيقن أنه الفراق بينه وبين حلمه، وبعد انتهاء الفرح، عاد إلىٰ بيته، ارتمىٰ علىٰ جسد زوجته ينهل منه انتقامًا من «خديجة».



بدأ «أسعد» سرًّا يوسع جماعته وضم إليهم آخرين لتشكيل تنظيم جديد، ورغم أنه يرتاب في فكر الجماعة لتكفير الناس واستحلال أموالهم، إلا إنه بدأ في اتباع نفس الأسلوب، فظهوره بمظهر المتشدد يضمن له ولاء جماعته.

لم يغب ما يفعله «أسعد» عن الحاج «رجب» خاصة اتهامه له بأنه خرج عن الفكر القويم للجماعة، وراح يخالفه في الرأي والفتاوىٰ، إلا إن «رجب» أمر بعدم التعرض لـ«أسعد» إلىٰ أن تحين الفرصة المناسبة، فهو خطر عليهم ويعلم عنهم الكثير.

لم ينقطع «أسعد» عن حضور الندوات التثقيفية لجماعة الحاج «رجب»، كان الدرس عن القاعدة الفكرية التي تقول بجواز الاستيلاء علىٰ أموال المخالفين في الرأي أو العقيدة من المسلمين أو أهل الذمة باعتبارها غنائم، لاحظ أنه لا يتم ذكر أي معلومات عن أي عمليات أمامه فعرف أنهم يشكون في ولائه وأنه يجب أن يأخذ الحيطة.

أحـد أعضـاء جماعـة «أسـعد» يعمـل في قسـم الحسـابات بـالإدارة العامـة لشـركات الحـاج «رجـب» سـرب لـ«أسـعد» معلومـات أن الحـاج «رجـب» يعمـل لصـالحه مـن خلـف ظهـر جماعتـه يضـارب في البورصـات العالميـة بـأموال شـركائه التـي عـادوا بها إلىٰ مصر مـن دول الخلـيج العربـي بعـد انتهـاج الـرئيس «السـادات» سياسـة الانفتـاح الاقتصـادي ويحـتفظ بالمكاسـب لنفسـه، قـرر «أسـعد» أن يسـتغل هـذه المعلومـة ويبلـغ شـركاء «رجب» في الوقت المناسب.

كان لا بد لـ «أسعد» من توفير سيولة مالية ليضمن طاعة جماعته له عن طريق تزويدهم بالمال، فكر وقرر الانتقـام مـن الحـاج «رجـب» بالاستيلاء علىٰ أموال الشركة التي يعمل بها مستندًا إلىٰ نفس القاعـدة الفقهية التي يستندون إليهـا «جـواز الاستيلاء علىٰ أمـوال المخـالفين لهم في الرأي أو العقيدة من المسلمين».

وبما أن رأي جماعة «رجب» يخالفونه فقهيًا فأموالهم حلال لـه، راقب بحكم عمله في الشـركة حركـة الأمـوال، وأبلغـه «حسـن» رجلـه الذي يعمل في الحسابات بمواعيد تسليم الأمـوال للبنـك وأن السـيارة المستخدمة في النقل سيارة عاديـة ويرافـق السـائق حـارس أمـن وأحـد المسئولين عن خزينة الشركة، قرر التخطيط والاستيلاء علىٰ الأمـوال في أثناء نقلها.

اختار من جماعته خمسة أفراد يثق بهم ومنهم «حسن» الذي يعمل بالحسابات وخطط معهم للسرقة ووعدهم بأن يكون لكل منهم نصيب محترم من الأموال المستولىٰ عليها والباقي سيخصص لتمويل عمليات الجماعة الجهادية.

تم تكليف كل منهم بمهمة محددة، أحدهم يسرق حافلة صغيرة (ميكروباص) لتنفيذ العملية بها وعليه قيادتها، وآخر يؤمن المكان في أثناء الاستيلاء علىٰ الأموال و«أسعد» والثلاثة المتبقين يهاجمون السيارة.

دخل «أسعد» دورة المياه، غير ملابسه وارتدىٰ جلبابًا ووضع شاربًا مستعارًا وعمامة علىٰ رأسه، خرج من الشركة مختلط بالزبائن.
في التوقيت المحدد وبمجرد خروج السيارة التي تحمل الأموال تبعتها سيارة «أسعد» وجماعته، وكانوا يجلسون داخل السيارة متنكرين، دخلت سيارة الشركة أحد الشوارع الجانبية في طريقها إلىٰ البنك، اعترضتها سيارة «أسعد» ورفاقه، سارعوا بالنزول من الميكروباص بعد أن ارتدوا أقنعة تخفي كامل وجههم، قاموا بفتح باب سيارة الشركة، تفاجأ الموجودون بالسيارة بما يحدث، أعتدىٰ فردان من رجال «أسعد» علىٰ السائق بضربه علىٰ رأسه بشدة وسحبوه خارج السيارة، وهاجم «أسعد» ورفيقه فرد الأمن قبل أن يحاول استخدام سلاحه، حاول المقاومة فاعتدوا عليه بالضرب المبرح وكسر ذراعه وسقط مغشيًا عليه، استسلم المندوب المالي دون مقاومة بعد أن

شاهد الاعتداء الوحشي علىٰ رفيقيه، استولوا علىٰ حقيبة الأموال وبها ربع مليون جنيه وهربوا بها، لم تستغرق العملية أكثر من دقيقتين، نـزل «أسعد» ورفاقه من الميكروباص بعـد أن حافظوا علىٰ تنكـرهم علىٰ بعد شارعين من مكان الحادث، سارع «أسعد» بالعودة إلىٰ الشركة قبل اكتشاف غيابه.

استقل زملاء «أسعد» سيارتين أجرة نقلتهم إلىٰ ميدان الجيزة، ثم استقلوا متفرقين حافلة النقل العام إلىٰ حديقة الأورمان في الجهة المقابلة لحديقة الحيوان حيث أزالوا تنكرهم وتوجهوا متفرقين بوسائل النقل العام إلىٰ حلوان حيث تقابلوا مع «أسعد» الذي كان يحتفظ بالحقيبة في شقة كانوا قد استأجروها لاجتماعاتهم.

عثرت الشرطة علىٰ السيارة الميكروباص فارغة دون أي أدلة تفيد في التحقيق، لم يتهم الحاج «رجب» أحد بالسرقة، ولم يستطيع مرافقو حقيبة الأموال الإدلاء بأي معلومات عن القائمين بالسرقة، فقد كان «أسعد» وجماعته ملثمين يرتدون القفازات لعدم ترك آثار للبصمات، حتىٰ إنهم لم ينطقوا بأي كلمة لعدم التعرف علىٰ أصواتهم بدأ الحاج «رجب» التحقيقات داخل شركته فهو متأكد أن الجناة من الشركة لعلمهم بمواعيد خروج الأموال.

وزع «أسعد» مبلغ عشرة ألف جنيه علىٰ كل فرد من الذين شاركوا في عملية السطو، علىٰ أن يخصص باقي المبلغ لشراء أسلحة

والصرف علىٰ باقي أفراد الجماعة، أمر «أسعد» مرافقيه الخمسة بأن يكون ما حدث سرًّا بينهم لا يعلمه باقي أفراد الجماعة وأخذ عليهم العهد بذلك ومن يخالف يقتل، وأمرهم بعدم استخدام النقود لفترة وحتىٰ يأذن لهم بذلك فظهور النعمة عليهم كفيل بأن يفتضح أمرهم.

ورغم تنبيه «أسعد» تغيب «حسن» عن الذهاب إلىٰ الشركة وهرب بالنقود إلىٰ مكان لا يعلمه أحد، اجتهد «أسعد» وجماعته في البحث عن الهارب قبل أن يصل له رجال الشرطة أو رجال الحاج «رجب» الذين بدأوا في البحث عنه دون فائدة، علم «أسعد» من أحد مصادره أن حسن قد انضم إلىٰ جماعة أخرىٰ تخالف الحاج «رجب» وأنها توفر له الحماية.

التفاف بعض الشباب حول «أسعد» وتداول أقاويل عن خلافه في الرأي مع الحاج «رجب» جعله في دائرة الشك.

عُقد اجتماع عاجل لكبار الجماعة، اتفقوا علىٰ ضرورة تصفية «أسعد»، علىٰ أن يُنفذ الأمر بعد أن تهدأ الأمور.

❋❋❋❋

راقب «عزام» «أم عطية» وهي تدخل منزل «طلبة» صباحًا، لم يستطيع التكلم فهي لا تدخل البيت أبدًا في وجود «طلبة» وأهل الحارة جميعًا يعرفون ذلك ويقدرون ما تفعله.

أيقن «طلبة» أن وضع «أم عطية» محرج، بعد عودته من عمله، زار بيت «هريدي» التي تقطن فيه «أم عطية»، بحضور «هريدي» و«سمعان» وزوجتيهما وجه حديثه لـ «أم عطية»:

- يا «أم عطية»، أنا باطلب منك تكوني أم لـ «زينب».

بكت «أم عطية» بشدة، حتىٰ احتضنتها أم «مريم»، وبدأت في تهدئتها وتلطيف الجو وقالت:

- روح «أم أسعد» مباركاها العدرا، أكيد بتحوم حوالينا وبتبارك طلب المعلم «طلبة» هي هتستأمن حد علىٰ «زينب» و«أسعد» إلا أنت حبيبتها.

استمرت «أم عطية» في البكاء.

قامت زوجة «هريدي» هي الأخرىٰ باحتضان «أم عطية» ثم قالت لها:

- ما تنسيش وصية «أم أسعد» ليكِ يا «أم عطية».

زاد بكاء «أم عطية»، وجهت زوجة «هريدي» حديثها لـ «طلبة»:

- «فواكه» مش هتلاقي أب لأولادها أحسن منك يا معلم «طلبة» ولا أنت هتلاقي لـ«زينب» و«أسعد» أم أحسن من «فواكه».

لم تنطق «أم عطية»، هي لم تتخيل تحقيق حلمها وأن يكون الثمن فراق شقيقة روحها «أم أسعد».

قال المعلم «هريدي»:

- السكوت علامة الرضا، علىٰ بركة الله.

قال «طلبة»:

- احنا في واحد منه بعد أسبوعين يكون الأربعين علىٰ وفاة المرحومة «أم أسعد» قد فات، نكتب الكتاب علىٰ سنة الله ورسوله.

همت زوجة «هريدي» لتزغرد، وضعت «أم عطية» يدها علىٰ فمها وأسكتتها، قامت والدموع تسيل علىٰ خدها.

اختلىٰ «عزام» بـ «أسعد» ودار بينهما حديث:

- الجماعة مكلفاك بمهمة يا «أسعد».

باغت الأمر «أسعد»، تماسك، حاول أن يظهر الطاعة علىٰ تقاسيم وجهه:

- سمعًا وطاعة، إيه المطلوب مني.
- «جمال الصائغ» شغال نهب في أموال المسلمين، والجماعة قررت إنها ترجعها.
- جمال من أهل المنطقة ومشهور بالأمانة.
- أموالهم غنيمة.
- غنيمة إيه؟! هو احنا في حرب مع بعضنا.
- أنت بتعارض الأمر.

- لا، طبعًا.
- أنت تنفذ المطلوب منك من غير ما تناقش.
- بس كدا نبقىٰ بنسرقه يا شيخنا.
- حسن ملافظك، باقولك مالهم حلال وغنيمة لينا.

يعلم «أسعد» أن «عزام» عبد المأمور وأنه مجرد وسيلة لإبلاغه.

- إيه اللي مطلوب مني؟
- أنت وجماعتك يوم التنفيذ هتأمنوا المكان ووقت تنفيذ العملية تعملوا خناقة بينكم وتسدوا الشارع عشان مافيش حد من الناس يتدخل، العملية كلها مش هتاخد وقت.
- جماعة إيه يا شيخ «عزام»! مافيش جماعة مش أنتم لغيتوها؟!
- احنا عارفين إنك وشوية العيال دول بتتصلوا ببعض، عيونا مفتحه عليكم.

ابتلع «أسعد» ريقه تأكد أنهم يعرفون أنه وجماعته من نفذوا الهجوم علىٰ سيارة أموال الشركة، وقد يكون في الأمر كمين له فوجوده في مكان السرقة من الممكن أن يجعل الشرطة تسند السرقة إليه وقد يصفونه جسديًا بالقتل في أثناء السرقة، تماسك وسأل:

- مين اللي هينفذ؟
- ما تسألش.

سكت «عزام» ثم قال لـ «أسعد»:

- أنت عارف إن أبوك هيتجوز الحرمة اللي اسمها «أم عطية»، ولسه عضم أمك طري في التربة؟
- عرفت، هو حر.
- الغريب في الأمر إنه عايزني أشهد علىٰ عقد الجواز! (قالها بتهكم).

اغتاظ «أسعد» من لغة «عزام» كتم غيظه قام ورحل بعد أن وعد بالسمع والطاعة.

راقب «أسعد» محل «جمال الصائغ»، عرف مواعيد الفتح والإغلاق ومكان أمين الشرطة المكلف بالحراسة وأبلغ «عزام» بالمعلومات ليقوم بدوره بإبلاغ المسئولين بالجماعة لتحديد ساعة الهجوم.

اصطحب «هريدي» وزوجته «أم عطية» إلىٰ مكتب مأذون المنطقة ولحق بهما «طلبة» و«عزام»، وعُقِد القران بعيدًا عن الحارة، علىٰ أن يتأخر إعلان الزواج لبعد انتهاء فترة الحداد علىٰ «أم أسعد» التي تمتد عام من يوم وفاتها.

بعد أسبوع أبلغ «عزام» «أسعد» بأن يكون رجاله علىٰ أهبة الاستعداد لتنفيذ ما كُلفوا به، وضرورة افتعال مشاجرة في أثناء تنفيذ عملية نهب محل «جمال الصائغ» للفت الأنظار

بعيدًا عن المكان، فالهجوم تحدد له بعد ساعة من الآن، سأله «أسعد»:

- هل الحاج «رجب» يعلم بالمهمة؟
- الحاج «رجب» في عمرة، ومالوش أي دعوة بالمسألة دي.

كانت الأوامر قد صدرت بضرورة تصفية «أسعد» في أثناء المشاجرة المفتعلة وأن تظهر العملية علىٰ أن «أسعد» هو المخطط لها.

اصطنع «عزام» مشاجرة مع زبون له وذهب لعمل محضر بقسم الشرطة وقت تنفيذ العملية ليكون بعيدًا عن الشبهات.

وقفت سيارة أمام محل «جمال الصائغ» ترجل منها أربعة أفراد ملثمين دخل ثلاثة منهم محل «جمال الصائغ» شاهرين أسلحتهم في وجه العاملين والموجدين بالمحل، تعمد أحدهم أن ينادي الآخر باسم «أسعد»، وراح الرابع ينظر حول المحل باحثًا عن «أسعد» لجره إلىٰ المحل وقتله ليظهر الأمر علىٰ أن «أسعد» قُتل في أثناء السرقة.

فجأة أطبق رجال الشرطة بملابس مدنية علىٰ المكان فقد أعدوا كمينًا مسبقًا بالمنطقة بناء علىٰ بلاغ «أسعد» الذي حدد بدأ الهجوم علىٰ المحل كما أبلغه به «عزام»، حدث تبادل لإطلاق النيران أعقبه ذعر في المنطقة، قُتل أحد المهاجمين وهرب آخرين.

أصيب «جمال الصائغ» بطلق ناري في كتفه الأيمن.

كـان «أسـعد» قـد اختلـق شـجارًا أمـام المحـل حتـىٰ يظهـر أمـام الجماعة أنه أدىٰ المهمة وينفي عن نفسه تهمة إبلاغ الشرطة.

فشـل التخطـيط لعمليـة السـرقة التـي كـان معـدًا أن يـتم الهـروب بالأموال وقتل «أسعد».

حضر «رجب» مساء يوم تنفيـذ العمليـة مـن تأديـة العمـرة، توجـه لزيارة قسم الشرطة صباح اليوم التـالي، رحـب بـه مـأمور القسـم، قـال «رجب»:

- أنا والحمد لله رجعت امبارح من تأدية العمرة عقبالكم جميعًا، جايب للبشوات هدايا من عند الرسول -ﷺ.

ووزع علـيهم زجاجـات المسـك والطـواقي والسـبح وأعـواد السواك، واختص المأمور و«محسن» باشا برائحة العود باهظة الـثمن، ومصلية مـن النـوع الفـاخر، ووزع مـع الهـدايا بعـض حبـوب الفيـاجرا المستوردة من أمريكا علىٰ البعض، خـرج معـه أمـين شـرطة لتوديعـه، مال عليه الحاج «رجب» وسأله:

- المعلوم الشهري وصل؟
- وصل يا حاج.
- من الشهر الجاي هيزيد، بس أنت خلي بالك معانا.

أمر «رجب» بتهدئة الأمور، أرسـل لــ «عـزام» ليمتنـع عـن زيارتـه حتىٰ يرسل له وحذره من التعـرض لــ «أسـعد» أو أحـد رجالـه، وعـدم إثارة المشاكل مع أي من سكن الحارة.

بعد يومين سمحت حالة «جمال الصائغ» الصحية بزيارته، اصطحب الحاج «رجب» «طلبة» و«هريدي» وذهبوا للاطمئنان عليه بالمستشفىٰ، وهناك تقابلوا مع «محسن» باشا معاون المباحث الذي كان يأخذ بعض الأقوال من «جمال» بعد أن سمحت حالته بذلك، رحب معاون المباحث بالحاج «رجب» مقدرًا له دوره في بث روح الوحدة الوطنية بين المصريين، وقال له «رجب»:

- أعلم أنكم ستقبضون علىٰ الجناة في أسرع وقت.

عقد الحاج «رجب» اجتماعًا سريًّا مع الجماعة، وصدر القرار بسرعة التخلص من «عزام»، فهم متأكدون أن الشرطة لم تقبض عليه ليصلوا عن طريقه للرؤوس الكبرىٰ من الجماعة.

تأكد «عزام» أن شبهات الشرطة ستحوم حوله، فقد شوهد عضو الجماعة المهاجمة الذي قتل في سرقة محل «جمال الصائغ» معه أكثر من مرة، ما يخشاه الآن ليست الشرطة، لكنه يخشىٰ من تصفيته جسديًا بواسطة الجماعة التي يعرف عنها الكثير وقد يصدر الأمر بقتله قبل القبض عليه خشية أن يبوح بما يعرفه للشرطة، قرر أن ينجو بنفسه ويختفي من الليلة بعد أن يتأكد أنه لا يوجد أحد يراقبه.

تناول «عزام» قرصًا مهدئًا، وبدأ في حشو بعض السجائر بالحشيش، تذكر «أم عطية» وتفضيلها لـ «طلبة» عليه، الغليان والغل يجيشان بقلبه، تحت تأثير المخدر لعب الشيطان برأسه، قرر قبل أن

يهرب الانتقام من «أم عطية»، راقب من نافذته خروج «هريدي» الذي تسكن في بيته، وبعده «طلبة» من الحارة.

وقف «عزام» أمام باب بيته يراقب الحركة بالحارة، نظر في ساعته قاربت علىٰ الحادية عشر ظهرًا، بعد أن اطمئن أخذ طريقه إلىٰ بيت «هريدي» حيث تقطن «أم عطية»، وقف بمدخل البيت لبرهة حتىٰ اطمئن لعدم صدور أي صوت من شقة «هريدي» بالطابق الأول، عندما اطمئن خلع حذاءه وصعد السلم متسللًا حتىٰ لا يصدر صوتًا، كل ما كان يتمناه أن يجد باب «أم عطية» مفتوحًا بدلًا من أن يطرق الباب وبعد أن تفتح له يقتحم المكان.

صوت القرآن أتىٰ من شقة «أم عطية» واضحًا، إذًن الباب مفتوح، كانت «أم عطية» تقوم بمسح الأرض مرتدية قميصًا داخليًّا أحمر خفيف يظهر مفاتنها ويلتصق بجسدها، سال لعاب «عزام»، تحرك بحذر، شعرت «أم عطية» بحركة خفيفة خلفها، ظنت أن زوجة «هريدي» تصعد إلىٰ سطح البيت، استدارت لتلقي عليها تحية الصباح، تفاجأت بـ «عزام»، ألجمتها المفاجأة، همت أن تصيح لكن يد «عزام» كانت أسرع منها فلف زراعيه علىٰ عنقها وكتم صوتها بيده الأخرىٰ، حاولت التملص منه، أسقطها أرضًا اصطدمت رأسها ببلاط الأرض، شعرت بدوار خفيف، تنبهت أن يد «عزام» ليست علىٰ فمها، صرخت مستنجدة، ألقىٰ جسده الثقيل فوقها، زكمت أنفها رائحته الكريهة، قاومته بكل ما أوتيت من قوة حتىٰ أسقطته عنها، رغم الدوار

الذي تشعر به قامت، حاول أن يمسك بقدمها وهو ما زال مستلقيًا علىٰ الأرض، عاودت الصراخ وهي تصيح:

- الحقوني يا ناس.

تخلصت من يده الممسكة بقدمها بركله برجلها الأخرىٰ في وجهه، أسرعت إلىٰ المطبخ و«عزام» خلفها، استلت سكينًا كبيرة، وقالت له:

- أنت اتجننت؟ أكيد مش في وعيك، ابعد يا خسيس يا عرة الرجالة، والله لو قربت مني أحط السكينة في بطنك.

ما زال «عزام» تحت تأثير المخدر، ضحك بسخرية واقترب وكشف بطنه وقال:

- بطني أهي قدامك.

حاولت الهروب والنجاة، تابعها، لم يتراجع رغم تهديدها له بالسكين، تقدم نحوها.

لم تتوقف «أم عطية» عن الصراخ والاستنجاد بأهل الحارة، هجم عليها بشدة يحتضنها، وضعت السكين بكل قوتها في بطنه.

سقط علىٰ الأرض مدرجًا في دمائه، حاول القيام والفرار، لم ينتبه إلىٰ زوجة «هريدي» التي صعدت بعد سماع صراخ «أم عطية» ممسكة بعصاة غليظة وضربته بها علىٰ رأسه، سقط علىٰ الأرض ينزف، تكفلت نسوة الحارة بتكتيفه وضربه بالنعال حتىٰ أتت الشرطة وخلصته من بين أيديهن.

عاينت الشرطة المكان، واصطحبوا «أم عطية» إلىٰ قسم الشرطة ونُقل «عزام» إلىٰ المستشفىٰ بسيارة إسعاف مصحوبًا بلعنات نساء الحارة.

****

عاد «طلبة» من عمله وعلم بما حدث، وقف وسط الحارة ونادىٰ علىٰ رجال الحارة بأسمائهم وأعلن للجميع أن «أم عطية» زوجته علىٰ سنة الله ورسوله ثم نقل ابنتيها إلىٰ بيته ليكونا تحت رعايته.

«طلبة» يقرأ الأحداث جيدًا، يعي ما يدور حوله، توقع حدوث مشاكل له وأسرته، لا معين له بالحارة إلا «سمعان» و«هريدي» وهما قد كبرا في العمر، يخشىٰ علىٰ «أسعد» من بطش الجماعات به، قرر أن يرسل لابن عمه بقريتهم، حضر في اليوم التالي ومعه ثلاثة من رجال العائلة، شعر «طلبة» بالأمان قليلًا.

ملأ الغيظ الحاج «رجب» من حماقة «عزام»، خشيَ أن يبوح للشرطة بما يعرفه، أمر بمنع زيارته بالمستشفىٰ لتلافي الشبهات، عينت الشرطة حراسة علىٰ «عزام» في المستشفىٰ، أصدر الحاج «رجب» تعليماته بسرعة تصفيته.

في الصباح الباكر لليوم الثاني من دخول «عزام» المستشفىٰ، لاحظ جندي الحراسة المكلف بباب حجرته امرأتين ترتديان زي عمال النظافة بالمستشفىٰ وتحملان بعض أدوات النظافة، طلبوا منه فتح باب حجرة «عزام» لتنظيفها، فتح لهم الباب، بعد تنظيف الحجرة

خرجوا بهدوء، دخل الجندي المكلف بالحراسة ليلقي نظرة علىٰ «عزام»، اطمأن عندما وجده ما زال نائمًا بسريره، بعد قليل حضرت الممرضة لتغيير زجاجة المحلول المعلقة والمتصلة بوريد «عزام»، وجدت بقاعها لون متغير، لاحظت أنه لا يتنفس، أمسكت بيده تقيس له النبض، لكنه كان قد فارق الحياة، قام المسئولون بالمستشفىٰ بإبلاغ الشرطة، حضر سريعًا «محسن» باشا معاون المباحث ووكيل النيابة وبدأوا التحقيق مع جندي الحراسة والعاملين بالمستشفىٰ.

لم يحضر أي من أهل الحارة أو من جماعة الحاج «رجب» دَفْن «عزام» الذي دُفِنَ في مقابر الصدقة.

بعد العشاء، قام الحاج «رجب» بزيارة «طلبة» في بيته، شد علىٰ يده، وقال له:

- خير ما فعلت يا حاج «طلبة» بزواجك من السيدة «أم عطية»، أنا كلفت أكبر محامي في الشركة ليقوم بحضور التحقيقات معها والدفاع عنها حتىٰ تنتهي أزمتها.

وحاول أن يدس مظروفًا به بعض النقود بيد «طلبة».

- أشكرك يا حاج، خيرك سابق، خلي فلوسك معاك، الفلوس موجودة والحمد لله وأنا شديت لزوجتي محامي.
- يبقوا اتنين محاميين أحسن من واحد يا حاج «طلبة».

كان «طلبة» يهدف بتعين محامي من طرفه أن يكون له عين في التحقيقات.

لاحظ الحاج «رجب» وجود الرجال من أقارب «طلبة»، رحب بهم ووجه حديثه إليهم:

- «طلبة» وأسرته مننا ولن نسمح بحدوث مكروه لهم.

ثم طلب أن يجلسوا أمام المنزل كعادة «طلبة» في السابق، أخرج «طلبة» دكتين وكرسي للحاج «رجب»، تجمع أهل الحارة، تبرأ الحاج «رجب» أمام أهل الحارة من «عزام» وقال:

- حاولت كتير أغير من سلوك «عزام» وقلت لما أقربه مني يمكن يتغير، لكن كما يقولون: «ديل الكلب عمره ما يتعدل»، بكرا الصبح آجي بنفسي أوزع نصيب أهل الحارة لحد ما يرجع «أسعد» يقوم هو بالمهمة دي.

نهض الحاج «رجب» بعد أن استأذن «طلبة» في الانصراف، ثم فجأة أستدار وقال لـ«طلبة»:

- خير يا معلم «طلبة»، «أسعد» بقاله مدة ما بيجيش الشركة.
- ربنا يبارك فيك يا سي الحاج، أنا فاكر إن «أسعد» في مأمورية تبع الشركة.
- براحته دا ابني، أنا بس قلقت عليه، لو قابلته يا حاج «طلبة» بلغه إني عاوزه، وتصرفات «عزام» كلها احنا ما نعرفش عنها حاجة.

لـ «رجب» كثير من الاتصالات ببعض المسئولين في مواقع مهمة، لا أحد يشك فيه، فهو رجل البر الموالي للنظام، وخيره وهداياه تصل إلىٰ بيوتهم، كما إنه لا يبخل علىٰ الفقراء.

اختفىٰ «أسعد»، فهو يعلم أن دمه مطلوب من الجماعة، وهم باتوا متأكدين من خيانته لهم وأنه من سرق الأموال من سيارة الشركة وأبلغ الشرطة عن موعد سرقة محل «جمال الصائغ» وأنه جميع الأماكن التي يتردد عليها مراقبة من رجال الجماعة.

ذهب «طلبة» إلىٰ شقة «أسعد» الزوجية يسأل عليه، قابله البواب أمام باب العمارة، عرفه «طلبة» بنفسه قال البواب:

- «أسعد» ما بيجيش وجماعته مش فوق، سافروا من أسبوع.
- سافروا فين؟
- ماعرفش هما سايبين معايا جواب لابنك.

أخذ «طلبة» الرسالة المعنونة باسم ابنه وقرأ فيها.

«بسم الله الرحمن الرحيم..

لقد فُرِّق بينك وبين زوجتك بأمر مفتي الجماعة وأصبحت لا تحل لك».



ذهب «طلبة» إلىٰ قسم الشرطة ليبلغ عن تغيب ابنه.

- أنا جاي أعمل بلاغ عن تغيب ابني.
- لمَّا يمر علىٰ غيابه ٢٤ ساعة ابقىٰ تعالىٰ بلغ يا حاج.
- دا بقاله أكتر من عشرة أيام وأنا لفيت المستشفيات وسألت أصحابه ماحدش شافه.
- اسمه إيه يا حاج.
- «أسعد طلبة».

توقف أمين الشرطة عن الكتابة عندما سمع بالاسم.

- اقعد يا حاج لحد ما يجي الباشا معاون المباحث، هو في مأمورية جانبنا وجاي.

قام أمين الشرطة وذهب لتحويلة التليفونات، أبلغ الحاج «رجب» بحضور «طلبة» يبلغ عن غياب ابنه.

بعد حضور «محسن» باشا معاون المباحث صعد «طلبة» لمقابلته.

- خير يا حاج «طلبة».
- ابني مختفي يا باشا، ومش عارفين مكانه.
- «أسعد» ابنك بخير، احنا عارفين مكانه، فيه خطر كبير عليه من الجماعة اللي كان منتمي ليها، «أسعد» شاهد ملك، هيفضل في حمايتنا لحد ما يبقىٰ في أمان، الخطر مش عليه هو بس الخطر عليكم كلكم، احنا مراقبين الحارة ونبذل جهدنا لحمايتكم، بس لازم أنتم تكونوا علىٰ حذر، وأي حاجة تحصل تبلغني بيها فورًا، وخلي بالك ما تبلغش حد غيري في القسم بأي معلومات.

عند زيارة «طلبة» لـ «أم عطية» بسجنها الاحتياطي بمديرية الأمن بباب الخلق، طلب منها الموافقة علىٰ زواج ابنتها «حبيبة» من «أسعد» عندما تتحسن الظروف، وافقت، طمأنها أن المحامي قال لهم إن الحكم سيكون غالبًا بالبراءة لأنك كنت في حالة دفاع عن النفس.

❋❋❋❋

يعلم «أسعد» أنه لا يوجد دليل يدين الحاج «رجب»، قرر المبادرة بالهجوم والتخلص منه، أرسل لمن يثق به من جماعته ليقابله في أحد مقاهي ميدان رمسيس، خرج متخفيًا عن رجال الشرطة الذين يراقبونه ويوفرون له الحماية، أعطاه رجله تعليمات لمراقبة فيلا الحاج «رجب»، ومعرفة أماكن نقاط الحراسة وعدد حراس الأمن،

تمهيدًا لمهاجمتها والاستيلاء علىٰ النقود والمجوهرات الموجودة للصرف منها علىٰ متطلبات الدعوة الصحيحة للدين، بناء علىٰ المعلومات اطمئن «أسعد» لوجود الحاج «رجب» وأسرته بالفيلا وأن الفيلا يحرسها البواب وحارسان فقط،.

حدد «أسعد» ساعة الصفر علىٰ أن يتقابل مع المنفذين أمام الفيلا.

في ساعة الصفر المحددة قابل «أسعد» مجموعته، طلب منهم أن يتقدم هو أولًا وأن ينتظروا إشارته لهم، وقف خلف شجرة مقابلة لباب الفيلا، لاحظ اقتراب عربة ملاكي من الفيلا التي يسودها الهدوء وكل نوافذها مغلقة، نزل من السيارة وجه يعرفه، يا إلهي! «محسن» باشا!، دار برأسه سؤال: «هل اشترىٰ الحاج «رجب» محسن باشا وأصبح من رجاله؟».

عربتان حمولة الواحدة سبعة ركاب يقتربان من الفيلا ويقفان علىٰ مقربة، استشعر «أسعد» الخطر فقرر الانتظار، أشار إلىٰ مجموعته بالكمون مكانهم وعدم التقدم، قرع «محسن» باشا الباب، لحظات وفتح له حارس الفيلا، فجأة هجم من كانوا بالعربتين واقتحموا الباب شاهرين أسلحتهم.

كانت الفيلا فارغة من سكانها، إلا من البواب وحارسان للأمن.

ترحع «أسعد» سريعًا، اجتمع برجاله في أقصىٰ الحديقة المقابلة لسكن الحاج «رجب»، شرح لهم خطورة الموقف، وأن شك رجال الشرطة في الحاج «رجب» قد يعقبه كشف لكل شبكته، وقال لهم:

- حرصت عند اختياركم ألا يكون أحدٌ منكم من المنتمين إلىٰ جماعة الحاج «رجب»، سنكون بالأمان إن تفرقنا، يجب أن تظلوا في أعمالكم في شركات «رجب» حتىٰ لا يلفت غياب أحدكم نظر الشرطة.

صدرت الصحف صبيحة اليوم التالي تحمل نبأ هروب الحاج «رجب» بأسرته خارج البلاد.

استجوبت الشرطة العاملين بشركات «رجب» وقُبِضَ علىٰ بعض المنتمين إلىٰ جماعته وهرب الكثيرون.

تعجب أهل حارة «الشماشرجي» من أخبار هروب الحاج «رجب» والقبض علىٰ بعض العاملين معه، لكن وتيرة الحياة لفتهم، إلا «طلبة» فقد كانت نظرته إلىٰ الأحداث مختلفة، عرف أن الخطر اقترب والجماعة لن تترك «أسعد».

❊❊❊❊

لاحظ «طلبة» تردد بعض الغرباء علىٰ الحارة، ذهب إلىٰ القسم وأبلغ معاون المباحث، وفهم منه أن الموقف تحت السيطرة وأن

هؤلاء الأفراد من الجماعات المتطرفة، ويسعون خلف «أسعد»، أبلغه «طلبة» بعزمه العودة بأسرته إلىٰ قريته بعد أن تنتهي التحقيقات.

بعد هروب «رجب» والقبض علىٰ بعض أعوانه حُقِّقَ مع «أسعد» في أحد مباني أمن الدولة، علم أن جماعة «رجب» مخترقة من مدة، قال له المحقق:

- نعلم أنك كنت علىٰ خلاف مع «رجب»، وما يشفع لك رغم مشاركتك في بعض أعمالهم أن ما شاركت في تنفيذه لم يتعدَ ترويع الآمنين ولم تصل إلىٰ مفهوم الجريمة، إبلاغك عن «رجب» وجماعته أضاف لنا معلومات عن بعض الأسماء التي كانت مجهولة لدينا، وستشهد بما تعرفه أمام القضاء كشاهد ملك.

باغته المحقق بسؤال:

- ما هي معلوماتك عن سرقة العربة التي كانت تنقل أموال شركة «رجب»؟

كان «أسعد» ثابت الانفعال:

- لا أعرف أي معلومات سوىٰ أن العربة قد اعترضها بعض اللصوص واستولوا علىٰ ما بها من أموال.
- أين كنت وقت السرقة؟
- في الشركة.

- نعلم أن حضورك كان مُثبتًا في دفتر المواظبة، لكنني أسألك عن معلومات إضافية.
- لا أعرف أي معلومات يمكن أن أضيفها.
- عمومًا «رجب» لم يتهم أحدًا.

****

ذهب «طلبة» ومعه «عطية» و«حبيبة» لاستقبال «فواكه» بعد الإفراج عنها والحكم ببراءتها، وخرج كل أهل الحارة لاستقبالها بمجرد دخولها الحارة وتهنئتها بالبراة.

شرح «طلبة» لـ«فواكه» خطورة الموقف وأبلغها بقراره تصفية أعماله وبيع البيت والاستقرار في قريته حيث يوفر أهله له ولأسرته الحماية، رحبت «فواكه» بما قرره، أرسل إلىٰ «محمد» ابن عمه في البلد ليستطلع رأي عائلته وأهل القرية.

بذل «محمد» جهدًا ليقنع العائلة بعودة «طلبة» وزوجته الغريبة عنهم، وافق الرجال، فمن العيب ترك أحدًا من أبناء عمومتهم يواجه الخطر وحده، كان لا بد من بذل جهد أكبر مع العمة الكبيرة للحصول علىٰ موافقتها، هي لم تنسَ أن «طلبة» خذلهم بتقديم كفنه لعائلة «الضبع»، لكنها في النهاية وافقت، بعد موافقة العائلة ذهب «محمد» وقابل كبير البلد الشيخ «محمد» الذي أصبح كبير البلدة وكبير عائلة «السماعنة» بعد موت أبيه الشيخ «مصلح»، وشرح له الموضوع

فرحب بعودة «طلبة» وأسرته، تكفل الشيخ «محمد» بالحصول علىٰ موافقة العمدة وعائلة «الضبع» الذين أفادوا بأن الثأر بينهم وبين عائلة «عتمان» انتهىٰ من يوم تقديم «طلبة» للقودة (كفنه) وأن حمايته واجبة عليهم، أرسل ابن عم «طلبة» يبلغه بترحيب الجميع بعودته، وتوفير الحماية له وأسرته.

****

نصح «طلبة» «أسعد» بالعودة إلىٰ البيت، فالجماعة لن تخاطر بالتعرض له والأمور ساخنة وهم يعلمون أن الشرطة تراقب المكان، ونبه عليه بعدم الخروج، وعلىٰ «فواكه» بضرورة غلق باب البيت وعدم فتح الباب إلا بعد التأكد من شخصية الطارق.

تبادل «طلبة» الرأي مع «فواكه» حول قيامه ببيع البيت في الحارة، قالت له:

- الحمد لله الحالة ميسورة والقرشين اللي معانا نقدر نوضب بيهم بيتك اللي في البلد، ونقفل البيت هنا، ماحدش عارف الظروف.
- صحيح وبيع البيت يلفت لنا نظر ولاد الحرام بتوع الجماعة، واستعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بالكتمان.

كان لا بد لـ «طلبة» من الذهاب إلىٰ بلدهم ليطمئن بنفسه قبل اصطحاب أسرته،

أشاع «طلبة» أنه سيذهب لزيارة أهل «فواكه» بقريتهم بجوار مدينة طنطا.

وقف بأول البلد، يتنفس بعمق، غاب عنه هذا النسيم العليل النقي، لكن البلدة بأهلها وحقولها ومبانيها لم تغب عن باله لحظة واحدة، شتان بين هواء حارة «الشماشرجي» وهواء القرية، هواء البلد يحمل رائحة أمه وأبيه الممزوج برائحة طين الأرض المروية بماء النيل، قفزت صورة «أم أسعد» أمامه تبتسم له، كاد يناديها باسمها، نزلت منه دمعة ومرت حياته معها كلها أمامه، ترحم عليها، توجه إلىٰ قبرها، جلس يحادثها، كانت ترد عليه وتواسيه، تقول له: «أنت زرعت الخير وحصادك هيكون خير، قول يا رب»، رد «طلبة»: «يا رب».

تنبه «طلبة» إلىٰ يد التربي الذي أتىٰ علىٰ صوته وهو يردد «يا رب»، عرفه الرجل، رحب به وقال له:

- الدنيا ليلة يا واد عمي.

شكر «طلبة» الرجل وتوجه إلىٰ منزل ابن عمه.

وصل خبر وجود «طلبة» في بيت «محمد» ابن عمه لباقي عائلته، توافدوا عليه مرحبين، حتىٰ عمته الكبرىٰ احتضنته وظلت تبكي و«طلبة» يحاول تهدئتها.

انتصف الليل وبعد الانتهاء من أكواب الشاي الثقيلة، قال «طلبة»:

- أستأذنك يا واد عمي في مشوار صغير.
- احنا في نص الليل يا «طلبة» ومافيش حد صاحي غير غفر الدرك، رايح فين؟
- طالع لـ «مطاوع».

صُعِقَ ابن عمه، طلب منه الانتظار حتىٰ الصباح، أو أن يرافقه، قال «طلبة»:

- دا الوقت المناسب.

تسلل بين طرقات القرية، فالطرقات لم تتغير بمرور الزمن، تخطىٰ منطقة المنازل مع حرصه ألا يراه أحد من الخفر، وصل إلىٰ منطقة الجبل، أخذ يتحسس طريقه بين الصخور، يأمل في أن يراه أحد رجال «مطاوع»، رأىٰ ثلاثة أشباح تهبط، لم يتفاجأ بظهورهم فكان ينتظرهم، الثلاثة ملثمون، شهروا بنادقهم في وجهه، لم ينطق، فتشوه، استولوا علىٰ حافظته، سأله أحدهم:

- أنت مين وإيه اللي جابك هنا في أنصاص الليالي؟
- أنا «طلبة عتمان» وجاي أقابل المعلم «مطاوع».

اقتادوا الملثمون «طلبة» بين طرقات ومدقات الجبل بعد وضع قطعة من القماش علىٰ عينه وتقييد يديه خلف ظهره.

سأله «مطاوع»:

- أنت مين؟

- أنا «طلبة عتمان» يا «مطاوع».

لم يصدق «مطاوع» ما سمعه، لكنه صوت «طلبة» الذي لم يغِب عنه أبدًا، أمر «مطاوع» برفع ما علىٰ عين «طلبة»، وبمجرد أن تأكد من شخصيته هب واقفًا، احتضنه وتنبه أن يد «طلبة» ما زالت مقيده ففكها، أجلسه، أمر رجاله بإعداد الشاي، وإشعال الفحم لزوم الجوزة.

قال له:

- هاسمع منك يا واد عمي بعدما ترتاح.

قال «مطاوع» لرجاله:

- ده المعلم «طلبة»، رفيق الصبا، لم نكن نفترق أبدا، فاكرين لما حكيت ليكم عن عركتنا مع الصهاينة في سينا سنة ٦٧، صابتني رصاصة غدر في صدري كنا وقتها بننسحب متبعترين.

وكشف صدره يريهم أثار الجرح:

- «طلبة» ضغط علىٰ صدري خلع سترته وحطها علىٰ صدري وربط فوقيها لحد ما وقف النزيف، حملني علىٰ كتفه عشرين كيلو وما خفش من خطر إنه يصيبه طلقة، ولا همه الطيارات اللي كانت بتحلق حوالينا، قلت له سيبني وانجىٰ بنفسك، مارضيش فضل شايلني لحد ما وصل بيا لنقطة إسعاف، أول ما نزلوني من فوق كتفه وقع من التعب، قال المسعفين أنه لولا

سترته اللي حطها فوق جرحي وربط عليه كان الهوا دخل صدري وتوفيت، «طلبة» فضل معايا يخدمني ويخدم كل الجرحىٰ بالنقطة، ولما نقلوني المستشفىٰ اتبرع لي بدمه.

بعد واجب الضيافة، قص «طلبة» علىٰ «مطاوع» ما حدث وأنه سيعود مع زوجته الجديدة إلىٰ القرية ويخشىٰ علىٰ حياة ابنه وأن أذاهم قد يطال كل الأسرة.

قال «مطاوع»:

- حمايتك أنت وأسرتك دين في رقبتي يا واد عمي، ما تخافش، احنا بينا وبين أهل البلد عمار، ما بناخدش حاجة من الفقير، كبارات البلد بيبعتوا لنا إتاوة نظير حمايتنا للبلد من أي قطاع طرق، حتىٰ الشرطة هما في حالهم واحنا في حالنا.

نزل «طلبة» من علىٰ الجبل مع أول ضوء للفجر.



الفصل الحادي عشر

مع ضوء النهار عادت الحياة تدب في البلدة، تغيرت المباني، فقدت أصالتها ورونقها القديم، هي نفس الطرقات لكن البيوت اختلفت، اختفت البيوت المبنية من الطوب النَّيِّ وحل محلها الطوب الأحمر وأصبحت واجهتها كبيوت المدينة، تعج بالمحلات في واجهة البيوت اختفت كلمة البقال وحل محلها «السوبر ماركت»، حتىٰ الكوافير كان له مكان، لكن أكثر ما أثار استغرابه وجود فرن للعيش بالقرية.

استقبل الشيخ «محمد» كبير البلد «طلبة» بالترحاب، اطمئن «طلبة» منه أنه نسق مع الجميع لعودة «طلبة» بأسرته، قال الحاج «محمد»:

- المهم يا حاج «طلبة» «أسعد» لما يجي البلد يلتزم بعادتنا وتقاليدنا، ويبتعد عن الطريق اللي كان ماشي فيه.

تعهد «طلبة» للشيخ «محمد» بالتزام «أسعد».

-فاضل مشوار واحد يا «طلبة»، لازم نقابل مأمور مركز الشرطة بقنا.

رحب المأمور بالشيخ «محمد» والحاج «طلبة»، استمع من «طلبة»، اطمئن إلىٰ عدم وجود أحكام قضائية علىٰ «أسعد» قال لهم:

- احنا ما نقدرش نمنع مواطن من العودة لبلده، طبعًا لا نريد مشاكل في القرية، سنبذل جهدنا لتوفير الحماية لكم لكن عليكم الالتزام.

❊❊❊❊

أشاع «طلبة» أنه سيسافر بأسرته إلىٰ بلدة زوجته للاستقرار هناك، أوصىٰ «هريدي» و«سمعان» بمراعاة البيت، قابل «محسن» باشا معاون المباحث وأخبره بانتقاله للعيش ببلدتهم، قال له «محسن» باشا إنه سيخاطب مركز الشرطة بمدينة قنا التابعة لها القريبة يخبره بانتقالهم وتمنىٰ لـ«طلبة» الخير.

خرج «أسعد» منفردًا متخفيًا وركب القطار، كان في استقباله بقنا أولاد عمومة والده.

بعد يومين من سفر «أسعد» شحن «طلبة» سيارته بالقطار إلىٰ قنا، وسافر بأسرته ليلاً.

رحبت نساء أسرة «عتمان» بـ «أم عطية»، شعرت بينهن بالأمان والاطمئنان.

منـذ خـروج «فواكـه» مـن محبسـها تبـدل حالهـا، تحـاول وضـع بسـمة علـىٰ وجههـا فتغلـب بسـمتها ملامـح الحـزن الممـزوج بـالبؤس الـذي وقـر في أعمـق مكـان بقلبهـا، سـيطرت عليهـا المشـاعر السـلبية، فقـدت نـبرة المـرح في صـوتها، مالـت إلـىٰ الهـدوء وخاصـمتها البسـمة، تعلـم أن «طلبـة» رغـم تظـاهره بالهـدوء والقـوة مكسـور مـن داخلـه، كلمـا اشـتد بـه الوجـع ينفـرد بنفسـه ويغلـق عينـه لكنـه لا ينـام، سـمعته بعـد الصـلاة يـدعوا ربـه: «اللهـم أخرجني مـن حـزني الـذي لا صـبر لـي عليـه، وقـوني حتـىٰ لا ينفلت صبري وتضيق نفسي».

في حديث بينها وبين «طلبة» قالت له:

- الفترة اللي فاتت تعبنا، حياتنا كانـت مـش طبيعيـة، سكن القلـق جوانا مكان الأمان.
- والله يا «فواكه» أنا لا يغمض لي جفن، الدنيا اتقلبت بينا والحياة مابقـاش ليهـا طعـم رغـم رجوعنـا بـين أهلنـا، لسـه مـش شـاعر بالأمان.

تحدد يوم زواج «أسعد» بـ «حبيبة» بعد أسبوع من وصـولهم إلـىٰ قرية «السماعنة»، قال «طلبة» لابن عمه:

- كان لازم نعجل بـالزواج، أنـت عـارف عادتنـا، شـباب وفي بيـت واحد ومخطوبين هنعمل الدخلة من غير احتفال.

تكفل «محمد» ابن عم «طلبة» بنقل الخبر إلىٰ باقي الأسرة، وصل الخبر إلىٰ العمة الكبيرة، قالت:

- نبه علىٰ «طلبة» يجيني يا «محمد».

نقل «محمد» إلىٰ «طلبة» رغبة العمة، أيقن «طلبة» أنها ستعترض علىٰ الزواج.

قالت العمة لـ «طلبة»:

- عارفة يا «طلبة» إنك مش عايز تعمل فرح لابنك عشان المرحومة «جمالات»، يا ابني الحزن في القلب ساكن، «جمالات» بنت أخويا -رحمها- الله لو كانت عايشة كانت هتفرح بولدها، احنا هنفرحها في نومتها، اعمل فرح لـ «أسعد» البنت لازم تفرح وأمها كمان لازم تفرح ببنتها، أنا عارفة قد إيه «أم عطية» حزينة علىٰ «جمالات»، ست أصيلة، اعمل فرح يا «طلبة»، أنا كلمت كبارات العيلة والكل موافق، عاوزين نفرح.

قام «طلبة» بتقبيل يد عمته ورأسها.

جُهِّزَ أثاث بيت الزوجية علىٰ عجل.

في اليوم السابق للدخلة، تكفلت «فواكه» بعمل الحنة، وضعتها في كفوف «حبيبة» وأختها «فضيلة» و«زينب»، وبدأت في تحنية باقي البنات، أمسكت بنت بالطبلة وبدأت تغني:

«مدي ايدك يا عروسة .. مدي ايدك للحنة

مدي ايدك يا عروسة .. مدي ايدك واتحني».

واستلمت أخرىٰ الغناء وغنت للعريس:

«بس الولا يجي .. بس الولا يجي

يجىٰ عند دارنا .. وادبح له حمامنا، واشاورلة يجىٰ».

بعد أذان العصر حضر مأذون القرية، عُقِدَ القِران وشهد علىٰ العقد الشيخ «محمد» كبير عائلة «السماعنة» والشيخ «مغاوري» كبير عائلة «الضبع»، وفي المساء تجمعت النسوة والبنات في حوش دار العمة الكبيرة، وبدأوا في الطبل والغناء، وخارج الدار جلس الرجال يستمعون إلىٰ آيات الذكر الحكيم، وبعد انتهاء الحفل بدأ دق الطبل والمزمار ورقص الشباب بالخيول علىٰ النغمات، ودوت طلقات الرصاص تعبيرًا عن الفرح، أمسك «طلبة» بالعصا وراح يحطب بها مع أولاد عمومته.

تفرس «طلبة» في وجه «فواكه»، تمنىٰ لو استطاع أن يمحو الحزن الظاهر علىٰ وجهها، حاول التهوين عليها، وضعت رأسها علىٰ صدره، تركها تبكي فالدموع تطفئ منابع الحزن.

قال «طلبة» لـ «فواكه»:

- «سمعان» كلمني امبارح سألته علىٰ «عطية»، طمني عليه وقال «هريدي» معتبره ابنه وواخد باله منه، يمر شهر يكون مافيش

حد من الجماعة الإرهابية مراقبه، يجي يستقر وسطينا ويساعدني أنا و«أسعد».

ظهر الارتياح علىٰ وجه «فواكه» فقد كان قلقها علىٰ «عطية» من ضمن أحزانها.

****

أعاد «طلبة» بناء البيت بالطوب الأحمر، حرص علىٰ وضع شبك حديد بالنوافذ يمنع اقتحامه، وافتتح متجرًا للوازم الحاصلات الزراعية، وكان يستخدم سيارته في نقل البضائع إلىٰ محله وإلىٰ من يريد من أهل البلدة، ورغم وجودهم بين أهليهم، كانوا يدققون في وجه أي غريب ينزل البلدة.

****

لاحظت «فواكه» أن رجلًا يغطي وجهه بوشاح زار «طلبة»، فسارع «طلبة» بإدخاله البيت وكأنه يخشىٰ أن يراه أحد، نادت علىٰ «طلبة» ليأخذ منها أكواب الشاي ويقدمه للضيف، لاحظت لفة من القماش علىٰ الكنبة، أعطىٰ «طلبة» الرجل نقودًا وانصرف بعد أن أعاد وضع الوشاح علىٰ وجهه، سألت «طلبة» عنه:

- دا واحد من رجالة «مطاوع» جايب لي فردين خرطوش، ماحدش ضامن الظروف يا «فواكه».

- دا سلاح مش مرخص يا «طلبة» وفيه خطر من وجوده في البيت.
- دي مسدسات يصنعها بعض الناس في ورش بمنازلهم، مافيش بيت في الصعيد يا «فواكه» مافيهوش سلاح.
- أنا قلقانة من علاقتك بـ «مطاوع».
- ما تخافيش الأصدقاء قيمة في حياة الإنسان، «مطاوع» مش مجرم لكن الظروف هي اللي حكمت عليه بكدا، «مطاوع» ما بيأذيش أهل البلد بالعكس، مافيش عصابة تقدر تدخل البلد، الكل عامل حساب «مطاوع».

تبسمت بسمة خفيفة وقالت:

- زي «أدهم الشرقاوي» يعني.

❋❋❋❋

مرت أكثر من ستة أشهر، ظن «أسعد» أنه أصبح في الأمان وأن الجماعة نفضت يدها منه، انتظم هو و«عطية» مع «طلبة» في البيع والشراء بتجارة الحاصلات الزراعية، لكن «طلبة» كان منتبهًا دائمًا.

في صبيحة أحد الأيام زار خفير من مركز الشرطة «طلبة» في دكانه رحب به «طلبة»، وبعد تقديم واجب الضيافة سأله عن سبب الزيارة.

- الباشا ضابط المباحث طالبك أنت وأبنك «أسعد».
- خير يا شيخ الغفر؟

- ما عنديش فكرة.

ذهب «طلبة» و«أسعد» لمقابلة معاون المباحث، رحب بهما وحذرهما:

- احنا رصدنا أفراد من الجماعة الإرهابية يجمعون معلومات عنكم.

أمتقع وجه «أسعد»، تمالك «طلبة» نفسه، قال معاون المباحث:

- سنوفر لكم الحماية من خلال الأكمنة في مداخل ومخارج القرية، وعليكم أخذ الحيطة في تحركاتكم، الناس دول بينهم وبينكم تار، بعض الجماعات التي كانت تختلف مع بعضها صفوا الخلافات التي بينهم وأعادوا الاندماج مرة أخرىٰ ويسعون للانتشار في كل أنحاء مصر.

حرص «طلبة» علىٰ الحد من تحركاتهم، وكان يتأكد بنفسه من غلق أبواب البيت والنوافذ، عاد القلق يطل برأسه.

طرق علىٰ باب المنزل، نظر «طلبة» في ساعته، الواحدة بعد منتصف الليل، نظر من نافذة حجرته دون أن يضيء نورًا حتىٰ لا يلفت نظر الطارق، تأكد أنه رجل يرتدي الزي الصعيدي وأنه وحده، سحب فرد الخرطوش وقام بإيقاظ «أسعد» و«عطية».

عند الباب سأل من الطارق.

- أنا «حسن»، الشيخ «أسعد» يعرفني كنت ضمن جماعته.

- انتظر يا حسن.
- لا تخشوا شيئًا، أنا وحدي لا يوجد أحد معي.

طلب «طلبة» من عطية الصعود إلىٰ سطح البيت ومراقبة الطريق. صعدت «فواكه» إلىٰ سطح البيت مع «عطية» حتىٰ يراقبا الطريق من كل الاتجاهات.

فتح «طلبة» الباب وشهر فرد الخرطوش في وجه «حسن» الذي قام برفع يديه، ليتمكنوا من تفتيشه والتأكد أنه لا يحمل سلاحًا، رحب به «أسعد»:

- اعذرني يا «حسن» الاحتياط واجب.
- صحيح يا شيخ «أسعد».

أمر «أسعد» زوجته بأن تعد واجب الضيافة للضيف، وسأله:

- يا ترىٰ إيه سبب الزيارة، ومين عرفك بالمكان؟
- احنا لينا عيون كتيرة يا شيخ «أسعد»، وأنت سيد العارفين، وسهل الاستدلال علىٰ البلدة، ورغم أن الشرطة تراقب مداخل ومخارج القرية إلا إنني ومعي بعض الإخوة دخلنا بسهولة بالمعدية، نقلتني من الشط التاني للنيل وزي ما أنت شايف أنا حالق لحيتي وأرتدي جلبابًا صعيديًا، وقبل ما آجي البلد متفقين مع أحد التجار هنا عشان نشتري منه بضاعة يعني لو الشرطة اعترضتني حجة وجودي في القرية جاهزة.

- جماعة «رجب» بعتاك؟
- يا شيخ «أسعد» الحاج «رجب» برا البلد أنت عارف إني كنت انفصلت عن جماعتهم، لكن كبار مشايخنا أعادوا دمج أكتر من جماعة، لأننا عرفنا إننا بتفرقنا ضعفنا والشرطة وجهت ضربات موجعة لنا.
- طيب يا شيخ «حسن» أنت جاي ليه؟
- جاي أبلغك إنهم أعادوك مرة أخرىٰ للجماعة.
- يا «حسن» أنا بقيت في حالي وأخدت عهد علىٰ نفسي بعدم العودة مرة أخرىٰ لهذا الطريق، وقد تزوجت وزوجتي حامل.
- كل المعلومات التي ذكرتها نعلمها، أنا جيت أبلغك بقرار المشايخ بعودتك مرة أخرىٰ للجماعة، وأنك تأسس جماعة هنا في المنطقة وتكون أنت الأمير المسئول عنها.

نظر «طلبة» بعينه لـ «أسعد» وفهم «أسعد» أن أباه يطلب منه الصمت.

نادت «حبيبة» زوجة «أسعد» فعلم «أسعد» أن الطعام قد جُهز.

قال «طلبة»:

- مد إديك معانا يا «حسن» ناكل لقمة عيش وملح وبعدين نتفاهم.

- أنا مش جاي أتضايف يا حاج «طلبة»، أنا مش لوحدي، أنا خليت باقي المجموعة يستنوا برا البلد، فلا يصح أن نهجم مرة واحدة كده علىٰ بيت أحد رجالنا، ولو تأخرت سيصيبهم القلق وسيأتون.

قال «أسعد»:

- أكيد أنتم عارفين كل اللي أنا عملته مع الحاج «رجب»، وبرضه تصرون إني أنضم ليكم تاني.
- نعم نعلم أنك كنت تختلف مع الحاج «رجب» في بعض الأمور، الجماعة متمسكة بيك، أنت سبق تدريبك وتجيد قيادة الرجال والميزات دي جعلت الكبار يطلبون إعادة ضمك مرة أخرىٰ، أما ما حدث منك مع الحاج «رجب» ومع «عزام» وإبلاغك عن السطو علىٰ محل «جمال الصائغ»، فاحنا اعتبرناه تصفية حسابات بينكم.
- وإن ما وفقتش يا شيخ «حسن»؟
- عارفين إنك عاقل وستوافق يا شيخ «أسعد»، وإلا يبقىٰ لينا تار عندكم كلكم وأنت عارف إن محدش هيقدر يحميكم أنت وأهل بيتك مننا، وسنسرب للشرطة خبر إنك من قمت بسرقة السيارة التي كانت تحمل نقود الحاج «رجب»، وأنا بابلغك أمام والدك عشان يعقلك.
- أعطوني فرصة أفكر.

كـان «طلبـة» صـامتًا يراقـب الموقـف ويـوازن الأمـور في رأسـه، تغيرت لهجة «حسن» للهجة تهديدية:

- مـافيش فرصـة، الأوامـر صـدرت بتصـفيتك أنـت وأبيـك وكـل أسرتك لو لـم تنضم إلينا، وإياك وإبلاغ الشرطة.

كاد «أسعد» أن يستخدم فرد الخرطوش، لكن بإشارة من يـد أبيه توقف، تظاهر «أسعد» بالموافقة وقال:

- يا شـيخ «حسـن» الأمـور مـا تتاخـدش كـدا، لازم أرتـب حـالي، الشرطة عينيها مفتوحة عليا، ثم إن لـي مطالـب ماليـة، وأسـلحة عشان أقدر أشكل جماعة.
- أكيـد عـارفين المطالـب وسـيكون كـل شـيء عنـدك في الوقـت المناسب، وحتىٰ آتيك بمطالبك عليك بمراقبة الشـباب خاصـة العـاطلين عـن العمـل وتحديـد الصـالح مـنهم للانضـمام إلـىٰ الجماعة.

هم «حسـن» بالانصـراف ثـم توقـف ونظـر إلـىٰ «أسـعد» ثـم إلـىٰ «طلبة» وقال:

- قـد تكـون تظـاهرت بالموافقـة فقـط، لكنني أؤكـد لـك أنـك في النهايـة سـتوافق، فأنـت في حاجـة إلـىٰ مـال كثيـر تحسـن بـه أوضـاعك، وأيضًـا تعلـم أننـا لـن نتركـك أنـت وأي مـن أهلـك، وأحذرك من إبلاغ الشرطة.

سيطر التوتر والقلق علىٰ «طلبة» و«أسعد» وانتابتهما حالة مؤلمة من الصراع النفسي وتناقضت المواقف أمامهما، قدمت «أم عطية» لهما الشاي وقالت:

- هتعملوا إيه؟

رد «طلبة»:

- سنبلغ الشرطة.

بعد دقائق من انصراف «حسن» عاد الطرق علىٰ الباب من جديد.

سأل «طلبة»:

- مين؟
- «مطاوع».

فتح «طلبة» لـ «مطاوع»، أخبرهم «مطاوع» أنه ورجاله راقبوا «حسن» ومن معه حتىٰ انصرافهم، قام لينصرف سريعًا، توقف بالباب وقال:

- علىٰ فكرة يا «طلبة» الشرطة كانت تراقب ما حدث.

في الصباح ذهبا إلىٰ مركز الشرطة، قابلوا ضابط المباحث، رحب بهم، وقال:

- كنت في انتظاركم.

قصَّ عليه «طلبة» ما حدث من زيارة حسن و«طلبة» أن يشكل «أسعد» جماعة بالمنطقة.

- احنا مراقبين الجماعة من وقت دخولهم القرية بالمعدية عن طريق النهر، وزيارة أحدهم لبيتكم، فقط ننتظر لنعرف كل المتعاونين معهم ونقبض علىٰ الجميع.

ثم نظر لـ«أسعد»:

- تظاهر بالموافقة علىٰ الانضمام إليهم، خدمة لبلدك.

قال «طلبة»:

- بس كدا يبقىٰ فيه خطر عليه.
- يا حاج «طلبة»، الناس دي خطر علىٰ الدين والبلد، محتاجين نعرف كل شيء عنهم، وجهات تمويلهم داخل وخارج مصر.

وقال موجهًا حديثه لـ «أسعد»:

- دي مهمة وطنية يا «أسعد» وستكفر بها عن أخطاء سابقة وقت انضمامك لهذه الجماعات، وسنكون معك في كل خطوة حتىٰ نقبض عليهم.

غاب «حسن» لمدة قاربت علىٰ الخمسة أشهر حتىٰ ظن «أسعد» أنهم قد صرفوا النظر عن انضمامه إليهم.

وضعت «حبيبة» ولدًا أسمته «هاني»، سارع «طلبة» بالتكبير في أذن المولود اليمنىٰ، وأقام الصلاة في أذنه اليسرىٰ، وتم الاحتفاظ

بقطعـة مـن المشـيمة لوضـعها في حجـاب يعلـق بملابـس «هـاني» في السبوع، في اليوم السابع اجتمع أفراد عائلة «عتمان» لحضور الاحتفال بسبوع «هاني»، قالت عمة «طلبة» الكبرىٰ:

- النهاردا سبوع راجل جديد لعيلة «عتمان»، السبوع احنا وارثينه عن جدود الجدود من أيام الفراعين.

وزغردت ثم قالت:

- عدد السماوات سبعة، وربنا خلق الخلـق في سـبع أيـام، بنطـوف حوالين الكعبـة سـبع مـرات، وبنرمـي الشـيطان بسـبع جمـرات، وبركات «هاني» سبع بركات.

ثم زغردت، نظرت إلىٰ إحدىٰ السيدات:

- جبتم ماية الملايكة؟
- أيوا يا عمة، جبناها من ماية النهر الكبير لما نامت نومة القيلولـة لما الشمس قربت تغرب.

كانت فواكة قد أخذت مايـة الملايكـة وعقمتهـا بالغليـان قبـل أن يستحم بها «هاني»، أحضرت الداية (القابلة) صينية السـبوع في وسـطها إبريق عليه نقوش «باسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول» ملفوف عليه سبحة جدة «طلبة» بتسعة وتسعين حبايـة، وفي مايـة الصـينية ورق نعناع وريحـان وليمـون والسـبع حبـوب موصـولين كـل سـبعة بخـيط،

والصينية مملؤة بالنقود المعدنية التي وضعها المعازيم كنقوط المولود وكلها من نصيب الداية.

أُلبس «هاني» جلبابًا أبيض ووضع عقالًا عربيًا علىٰ رأسه وعلقت أمه حجابًا أعدته بناء علىٰ إرشاد العمة ويسمىٰ (البسلة) وحشته من الداخل بقطعة المشيمة (خلاص الطفل) الموضوعة في ملح غير مجروش، وقطعة خبز، وكانت العمة و«حبيبة» تخيط الحجاب تردد «جعلتك حرزًا لـ «هاني» من شر العين، حرز الحسن والحسين»، ثم طلبت العمة الإثمد (كحل الحجر) وكحلت به عين «هاني» الذي بدأ بالصراخ، سارعت «حبيبة» باحتضانه.

كان «أسعد» يعلم أن «حبيبة» نفسها في السبوع التي كانت تراه في حارة «الشماشرجي»، أحضر الشموع وقامت «فواكه» بتوزيعها علىٰ الأطفال، وُضع «هاني» بالغربال وبدأت «فواكه» في رجِّه وهي تسمي باسم الله، وخطت «حبيبة» فوق الغربال سبع مرات، و«فواكه» تردد:

«الأولىٰ باسم الله، والثانية باسم الله، والثالثة باسم الله، والرابعة باسم الله، والخامسة باسم الله، والسادسة باسم الله، والسابعة رقوة سيدنا محمد بن عبد الله». ثم بدأت بالدق بجوار رأس «هاني» بالهون وتوصيه:

«اسمع كلام أمك، اسمع كلام أبوك، اسمع كلام سيدك وكلام ستك (الجد والجدة)». ثم بدأت تردد باقي أسماء العائلة.

قام «أسعد» بذبح العقيقة، كبش كبير.

أمسكت «فواكه» بالطبلة وبدأت تنقر عليها وتغني بصوتها الجميل «حلاقاتك برجالاتك حلقة دهب في وداناتك» والسيدات والبنات يرددن خلفها، براعة «فواكه» في الطبلة جعلت العمة الكبيرة تشارك البنات في الرقص.

بعد الاحتفال رأىٰ «طلبة» في وجه «فواكه» الرضىٰ لأول مرة من مدة طويلة، ابتسم بسمة ملئت وجهه، ارتمت في حضنه.

❋❋❋❋

وتفاجأ «أسعد» في وضح النهار بـ «حسن» ومعه خمسة من شباب جماعته يدخلون عليه دكانه ودون أن يلقوا السلام، بادره حسن قائلاً:

- ذهبت ليه للشرطة يا شيخ «أسعد» وأبلغت عنا؟
- هم من استدعوني لأنكم كنتم متراقبين.
- احنا دخلنا ولا حد حس بينا، الشرطة خدعتك وأفهموك أن أعينهم مفتحة، يا «أسعد» احنا لينا عيون في كل حتة، ورغم إبلاغك عنا، لسه قدامك فرصة إنك تنضم إلينا وقرارك يجب أن يكون الآن وإلا ستُصفىٰ حالًا.
- حتىٰ بعدما بلغت عنكم؟!

- نعم، بعملك معنا ستكون عينًا لنا داخل الشرطة التي تظن أنك تتعاون معها، ولا تنسىٰ أنك لست وحدك، فكل أسرتك وزوجتك وابنك سيُقتلون لو رفضت أو خنت.

علت أصوات «أسعد» و«حسن» وبدأ المرافقين لحسن بمنع الأهالي الذين بدأوا في التجمع من الاقتراب من الدكان شاهرين أسلحتهم في وجه الجميع.

كانت «أم عطية» تنظر من نافذة البيت وشاهدت «حسن» ورفاقه، أسرعت بإخبار «طلبة»، الذي سارع هو و«عطية» بالنزول، بدأت في الصياح والنداء علىٰ أولاد عم «طلبة» وأهل البلد.

باغت تصرف «أم عطية» «حسن» وحتىٰ «طلبة» و«أسعد» تفاجآ، فهذا مخالف لما خططوا له مع الشرطة.

قفز «أسعد» وأمسك بـ «حسن» من الخلف يحاول تكتيفه وهو يقاومه، وصل «طلبة» وهوي بعصا غليظة (شومة) علىٰ ظهر أحد المرافقين لـ «حسن» فسقط أرضًا، هجم بعض من شباب القرية علىٰ المهاجمين، أطلق أحد المهاجمين طلقة من مسدسه أصاب «أسعد» في صدره فسقط مدرجًا في دمائه، سارعوا بالهروب قبل حضور الشرطة التي سمعوا أصوات سياراتها.

قُبِضَ علىٰ من أسقطه «طلبة» بضربه بالشومة علىٰ ظهره، وعند وصول «حسن» ورفاقه الأربعة إلىٰ مشارف القرية تلقفهم «مطاوع»

ورجاله ودارت معركة قصيرة، بعدها تم تقييد «حسن» ورفاقه وتركهم في حراسة أهل القرية حتىٰ وصلت الشرطة وقبضت عليهم.

بعد التصريح بدفن «أسعد»، قام شيخ المسجد بتغسيله وتكفينه، تسارع الجميع لحمل نعش «أسعد» صار به الرجال حتىٰ المقابر تتبعهم النساء في الخلف يرتدين السواد، وحالة شديدة من الحزن تسيطر علىٰ الجميع.

نُقلت «حبيبة» إلىٰ المستشفىٰ لعلاجها من حالة عصبية ألمت بها بعد مقتل «أسعد».

وقفَ «طلبة» يتقبل العزاء في «أسعد» وبجواره عطية وأبناء عمومته.

